المذاهب الفنية في الشعر الأندلسي وأثر المشارقة فيه

« رؤية نقدية »

د. زهران محمد جبر

مدخل :

بلاد الأندلس بقعة من الأرض جيدة التربة تجرى ربوعها أنهارا كثيرة ، وليس فيها الا الحدائق الغن والجبال الخضر،والحقول النضرة والأنهار الجارية ، والعيون الصافية والأشجار المورقة ، ومن يرى مخططها وكثرة ما يجرى بها من أنهار ، يصب بعضها فى المحيط الأطلسى وبعضها فى البحر المتوسط ، يحس جمال هذه البلاد وجمال مناظرها الطبيعية ، وقد أفاض مؤرخو العرب فى وصف مشاهدها ، كما أفاض الشعراء فى التغنى بمناظرها ، « وقد كان من أثر جمال الأندلس أن شغفت بها القلوب ، وهامت بها النفوس ، فتعلق الأندلسيون جميعا بها ، واقبلوا يسرحون النظر فى خمائلها ، ويستمتعون بمفاتنها ، ما شاء لهم الاستمتاع ، وأخذ الشعراء والكتاب ينظمون دررا فى وصف رياضها ومباهج حياتها بعد ان فتحت فى نفوسهم قول الشعر وجعلتهم يرون فيها ما يرى ابن خفاجة(١) اذ يقول :

أن للجنة فى الأندلس ... مجتلى حسن وريا نفس

فسناصبحتها من شنب ... ودجى ظلمتها من لعس

فاذا ما هبت الريح صبا ... صحت واشوقى الى الأندلس

---

(١) ١٦٩ : تاريخ الأدب العربى فى الأندلس . ابراهيم أبو الخشب وراجع ١٣٠ فى الأدب الأندلسى . جودت الركابى .

ولاشك أن (لتلك) الطبيعة الأندلسية أثرها فى صقل شخصية الشاعر الأندلسى وجعلها تتلاءم مع الأرض والمحيط(٢)،ويقول ابن سعيد: « ميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار ، فأكثرت بها الخصب والعمارة من كل جهة فمتى سافرت من مدينة الى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع ، ومما اختصت به أن قراها فى نهاية من الجمال لتصنيع أهلها فى أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون عنها فهى كما قال بعض الشعراء فيها :

لاحت قراها بين خضرة أيكها كالدر بين زبرجد مكنون(٣)

ويقول ابن اليسع انه « لا يتزود فيها أحد ما حيث سلك لكثرة أنهارها وعيونها ، وربما لقى المسافر فيها فى اليوم الواحد أربع مدائن ومن المعاقل والقرى ما لا يحصى ، وهى بطاح خضر وقصور بيض »(٤) .

وهذه البلاد نزلتها أمم مختلفة قبل دخول العرب فيها ، نزلها أولا قبائل البسك والسلت والجلالقة من الشمال من بلاد الغال ، كما نزل بها كثير من البربر سكان أفريقيا الشمالية ثم نزل بها بعد ذلك الفنيقيون اذ استعمرت قرطاجنة بعض جهاتها ، وكان ذلك قبل الميلاد بقرون ، وكان هذا الاستعمار سببا فى أن تنبهت لها روما ، فلما وقعت بينها وبين قرطاجنة الحرب المعروفة رأيناها تعمد الى هذه البلاد فتستولى عليها فى أوائل القرن الثالث الميلادى وتسميها أسبانيا اسمها المعروف ومنذ ذلك الوقت أصبحت أسبانيا ولاية رومانية ، وكان لروما تأثير واسع فيها فرأيناها تتخذ اللاتينية لغة لها كما تتخذ المسيحية دينها

---

(٢) ٤٤ : فى الأدب الأندلسى . جودت البركانى .

(٣) ١/٩٧ نفح الطيب ط بولاق المقرى

(٤) ١/٩٨ المرجع السابق .

بحيث لا يفد عليها العرب حتى تكون كثرة أهلها من المسيحيين • وهكذا كان « سكان الأندلس أمشاج من قبائل شتى تمثل الطوائف التى أتاح لها الزمن نزول تلك البلاد فى عصور التاريخ المتتابعة »(٥) •

وليست هذه الأحداث هى كل ما مر بالأندلس قبل الفتح العربى ، فقد جابهت أحداثا أخرى لعلها كانت أعنف من الأحداث السابقة ونقصد بها غارات (الفندال) عليها من الشمال ، وقد نزلوا بها وأسسوا على نهر الوادى الكبير مملكة سموها (فندلس) وسموا بها هذه البلاد وأغار عليها بعد الفندال جماعات القوط فى القرن الخامس الميلادى •

وأخيرا يفتتحها العرب فى أواخر القرن السابع للميلاد عام ٩٢هـ ويطلقون عليها كلمة الأندلس والتى أصلها (فندلس) نسبة الى قبائل الفندال التى أشرنا إليها من قبل ، ولم يكن الجيش الفاتح عربيا خالصا ، بل كانت كثرته من البربر ، واستمر العرب والبربر جميعا ينزلون الأندلس بعد الفتح ويستقرون بها بحيث استطاعوا أن يعربوها وأن يجعلوها ولاية عربية فى أول الأمر ، ثم سرعان ما تصبح بعد ذهاب عبد الرحمن الداخل اليها قبل منتصف القرن الثانى للهجرة بقليل دولة عظيمة تنافس بعاصمتها قرطبة بغداد وما يتصل بها،على أن هذه الدولة الكبيرة لم يمض عليها نحو قرنين ونصف حتى رأيناها تنقسم الى شعب وفروع كثيرة ، فتصبح كل مدينة كبيرة فيها امارة مستقلة بنفسها،لها ملك وللملك وزراؤه وشعراؤه فى هذا النظام المعروف باسم نظام (ملوك الطوائف) •

ولا تلبث هذه الامارات أن تضعف تحت ضغط المسيحيين فى الشمال بسبب تنابذها وتخاصمها ، ويستغيث ملوكها بدولة المرابطين فى المغرب، فتمد ذراعها لمساعدتهم سنة ٤٨٤هـ،وسرعان ما تستولى عليهم،وتخلفهما

---

(٥) راجع رسالة الدكتوراة المقدمة من الأستاذ عبد العزيز عيسى •

دولة الموحدين فتتحول الأندلس اليهم منذ سنة ٥٤١هـ ، ولا نمضى فى القرن السابع الهجرى طويلا حتى تأخذ هذه الدولة فى الضعف ، بينما تأخذ المدن الأندلسية فى السقوط واحدة وراء الأخرى بيد المسيحيين ، وينحاز المسلمون فى ركن ضيق بالجنوب ، هو مملكة غرناطة،يشيدون فيه قصور الحمراء التى لاتزال تتألق به الى اليوم ، ويدافعون عنها دفاعا مجيدا نحو قرنين ونصف ، حتى اذا لم يبق فى كفانتهم سهم أسلموها مولين وجوههم الى بطاح المغرب ، بعد أن ظلوا هناك ثمانية قرون شادوا فيها صرح حضارة ومدنية قوضت .

شخصية الأندلس :

لعل أهم ما يميز الأندلس ترفها ونعيمها ، ووصف شعرائها لطبيعتها وحسن مناظرها ، فقد ذهبوا يتغنون بمشاهدها ومواطن الجمال والفتنة فيها ، ويشيدون بها أيما اشادة يقول ابن سفر المزينى :

فى أرض أندلس تلتذ نعماء
ولا تفارق فيها القلب سراء
وكيف لا تبهج الأبصار رؤيتها
وكل روض بها فى الوشى صنعاء
أنهارها فضة والمسك تربتها
والخز روضتها والدر حصباء

ويقول ابن خفاجة يصف نهرا :

لله نهر سال فى بطحاء
أشهى ورودا من لمى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه
والزهر يكنفه مجر سماء

قـد رق حتى ظن قرصـا مفرغـا
من فضـة في بردة خضـراء

ويقول ابن سهل الاسرائيلى يصف جمال الطبيعة :

الأرض قد لبست رداء أخضـرا
والطل ينثـر في رباها جـوهرا
هـاجت فخلت الزهـر كافورا بها
وحسبت فيها التربَ مسـكا أذفرا
وكأن سوسنها يصـافح وردها
ثغر يقبـل منه خدا أحمـرا

وتفنن الأندلسيون تفننا واسعا في هذا الجانب وبذلك تركوا مادة كبيرة في شعر الطبيعة وساقهم ترفهـم الى وصف الخمر مـع وصف الزهر ، ثم وصف مجالس الشراب وما ينطوي فيها من قيان ، واستتبع ذلك الترف عندهم غناء واسع كان من آثاره ظهور الموشحات والأزجال تلك هي الصورة العامة لشخصية الأندلس ، وهي شخصية رشحت لها البيئة والطبيعة والعوامل الأخرى . أما السكان فقد كانوا من عناصر متباينة على نحو ما قدمنا،وجعلهم هذا التباين لا يهدأون ولا يستقرون، بل دائما ثورات وحروب داخلية.وأكبر الظن أن هذه الثورات والحروب هي التي جعلت الأندلس لا تستفيد كثيرا من الحضارات القديمة التي اتصلت بها سواء الحضارة الفينيقية أو الحضارة الرومانية .

على أن هذه الشخصية الطبيعية التي تميزت بهـا الأندلس لم تجعلها في بعض الفتـرات ذات شخصية أدبيـة مستقلة تسم أدبهـا بسمات مميزة عن أدب المشارقة لا من حيث التفوق فقط بل من حيث المجاراة . والمحـاكاة ، ولذلك اذا نظـرنا الى الأندلسيين وجـدناهم

« يقلدون المشارقة فى كل خطوة من خطوات النهوض ، ويحاكونهم فى كل حركة من حركات التقدم والنمو والانتعاش والازدهار »(٦) •

ومما لاشك فيه أن جانب البيئة كان ذا أثر واضح فى طبيعة الأدب الأندلسى شعره ونثره ، فاذا أهملنا هذا الجانب لم نكد نجد شيئا آخر ، فقد كانت الكتلة الأندلسية تنساق نحو المشرق بكل ما فيه ، وحتى شعر الطبيعة عندهم كانوا مقلدين فيه للمشارقة وان كانوا قد تميزوا بالكثرة منه ، أما بعد ذلك فصورته بما فيها من أفكار وأخيلة وأساليب هى الصورة الشرقية •

وهذا طبيعى فى أدب يستمد نهضته من التراث العربى بالمشرق ، وهو تراث كان مشتركا بين الأقاليم العربية كلها لا يختص به اقليم دون اقليم • وكأن الأندلس لم تجد من الوقت ما تتعمق به الثقافة الرومانية التى تثقفتها قديما ، على الرغم من اتخاذها اللاتينية،فلما جاء العرب لم يجدوها تحرز تراثا لاتينيا واسعا تستطيع أن تحتفظ به لنفسها ، وتندمجه فى التراث العربى العام ، لأن الأندلس كانت تستمد نهضتها وحياتها من بغداد ، شأنها فى ذلك شأن الأقاليم الاخرى،وكان يمكن أن يقوم بينها وبين المشرق فوارق وحواجز لو أنها بدأت حياة عقلية مستقلة عن حياة المشرق ، تعتمد على ترجمة ما تعرفه من آثار لاتينية غير أنها لم تتجه هذه الوجهة ، ولم تقم بها حركة ترجمة كالتى قامت فى بغداد،فقد كانت تقرأ الثقافات الأجنبية فيما يأتيها من هناك •

وقد بلغ التقليد درجة كان الأندلسيون معها يسمون بعض البلدان التى نزلوها بأسماء بلدان المشرق ، فقد سموا بلادنا قديمة باسم دمشق وقنسرين وحمص وفلسطين ، وربما كان هذا نوعا من الاعتزاز

---

(٦) ص ٥٠٣ تاريخ الأدب العربى فى الأندلس • أبو الخشب •

بالوطن الأول ، وأخذوا يعيشون على نمط يشبه نمط معيشة العرب في المشرق،واتصل ذلك بحياتهم في جميع ضروبها ومظاهرها من سياسته واجتماعية وعقلية وفنية ، وان كانوا حاولوا أن يجعلوا من حياتهم السياسية كالحياة السياسية في بغداد اذ نرى الناصر لقب نفسه بالخليفة(٧) ، ويلقب أمراء الطوائف أنفسهم بالرشيد والمأمون والمتوكل والناصر والمنصور والمعتمد ، يقول ابن شرف القيرواني(٨) :

مما يزهدني في أرض أندلس ... أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

أما الحياة الاجتماعية فقد عم التأثر فيها كل شيء ، اذ نرى الخلفاء يهتمون بالغناء والموسيقى على نحو ما رأينا في بلاط هارون الرشيد ، والمأمون وبدأت هذه الموجة مع وفود (زرياب) عام ٢٠٦هـ على الأندلس ، وكان قد تعلم فن الموسيقى والغناء على اسحق الموصلي، ثم رحل الى الأندلس ويذكر له صاحب نفح الطيب تأثيرا واسعا في الحياة الاجتماعية لا يقف عند الغناء ، وما عرف به من انشاء مدرسة هناك ثم ما كان من اصلاحه (للعود) وزيادته وترا على أوتاره يمثل النفس ، بل يمتد الى جوانب أخرى ، فقد شرع للناس ضروب البدع البغدادي في الزينة والطعام والشراب والاستقبال ، فهم يرون أنه سن لهم ما يحسن أن يلبسوه ويأكلوه ، وكيف يتزين النساء ، وكيف يصففن شعورهن الى غير ذلك من وسائل الحياة الاجتماعية والتأنق فيها(٩) .

---

(٧) ١/٢١٢ : نفح الطيب ، وأبو الفدا تحت عام ٣٥٠هـ .
(٨) ٢/١٠١ : نفح الطيب .
(٩) راجع ترجمة زرياب في نفح الطيب . طبع بولاق ، ٨٤ ـ ٨٦ . في الأدب الأندلسي جودت الركابي .

وجاء بعده أبو بكر بن باجة مؤلف الألحان فارتقى على يده علم الموسيقى وأتم نهضة زرياب •

أما الحياة الفنية ، ونقصد حياة العمارة والبناء فيظهر أن الأندلس تأثرت صورة الزخرف العربى العـــام ، اذ يقولون ان زخرفـــة قصر الحمراء ــ المعروف بغرناطة ، والذى يشغل مكانة خاصة وممتازة بين المخلدات الأندلسية ــ تتصل بتقاليد الفن الاسلامى العام ، وبالأخص فن ما بين النهرين ، أكثر منها بالتقاليد الأسبانية والافريقية(١٠) •

أما الحياة العقلية ، فقد كان التأثر فيها بالمشرق بينا واضـــحا ، وهذا شيء طبيعى ومتوقع ولكن غير المتوقع أن لا يحدث هذا التأثر ، خاصة اذا عرفنا أن جل الفاتحين أو النازحين بعد الى الأندلس قـــد تلقوا ثقافتهم الأولى عن المشارقة اما مباشرة أو بواسطة ، وقد تتبـــع صاحب (نفح الطيب) فى بيتين طـــويلين من رحلـــوا من الأندلس الى المشرق للتزود بالعلم ومن رحلوا من المشرق الى الأندلس طلبا للثـــروة أو المجد العلمى والشهرة ، كما نرى فى حياة أبى على القالى وأماليـــه التى أملاها هناك •

وكانت الأندلس بطيئة ــ على ما يظهر ــ فى نموها فى الحيـــاة العقلية ، لأن كثرة الفتن والخصومات وقفت حائلا دون تلقى الحيـــاة العقلية من المشرق والافادة منها واستثمارها •

الى جانب أن « الحياة العقلية عند الأندلسيين حياة تستمد أفكارها وتعتمد فى موازينها على الكتاب والسنة،يجعلونها الفيصل فيما يختلفون فيه » فلم يشتغلوا بالترجمة ولا بنقل العلوم الدخيلة ، ولم تبهـــرهم

---

(١٠) ٦١ الحضارة الاسلامية بارتولد (دار المعارف) •

لقضايا الفلسفية ، ولا المسائل الافتراضية ، ولم يهتموا بالبحث فى خواص الأشياء ، ولا الجرى وراء المجهول »(١١) .

ويرجع بعض الباحثين أسباب تصور الأندلسيين فى الناحية العقلية عن المشارقة ــ اضافة الى ما سبق ــ الى نفورهم من الاشتغال بالعلوم الدخيلة كالفلك والرياضيات ، والفلسفة والمنطق والعلوم الحكمية ، بل منع الكثير من الملوك مزاولة فروع هذه المواد والعكوف عليها ، مع عدم التشجيع على نشرها ، بل التعصب ضد من يظهر أنه يشتغل بها ، أو يتوفر على دراستها ، وتغلب العصبية الدينية على كثير من أولئك الملوك والعامة واعتقادهم أن العلوم تنافى الدين،ولا تتفق مع تعاليمه ومحاربتهم أربابها واساءتهم اليهم ، ورميهم بالكفر والزندقة والالحاد . حدث صاحب (نفح الطيب) حين استعرض حال الأندلسيين فى فنون العلم قال : « وكل العلوم ولها عندهم حظ واعتناء الا بالفلسفة والتنجيم ، فان لها حظا عظيما عند خواصهم ، ولا يتظاهرون بها خوف العامة ، فانه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة ، أو يشتغل بالتنجيم اطلقت عليه العامة اسم زنديق ، وقيدت عليه أنفاسه ، فان زل فى شبهة رجموه بالحجارة أو أحرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقربا لقلوب العامة ، وكثيرا ما يأمر ملوكهم باحراق كتب هذا الشأن اذا وجدت ، بذلك تقرب المنصور بن أبى عامر لقلوبهم أول نهوضه ، وأن كان غير خال من الاشتغال بذلك فى الباطن »(١٢) .

والمنصور بن أبى عامر هو أهم وزير للأمويين فى القرن الرابع اذ توفى عام ٣٩٢هـ ، يقول ابن غدارى : « وكان المنصور أشد الناس فى التغير على من عنده شىء من الفلسفة والجدل فى الاعتقاد والتكلم

---

(١١) ١٩ تاريخ الأدب العربى فى الأندلس .
(١٢) ١/١٠٤ : نفح الطيب .

فى شىء من قضايا النجوم وأدلتها والاستخفاف بشىء من أمور الشريعة وأحرق ما كان فى خزائن الحكم ـ الخليفة الأموى ـ من كتب الدهرية والفلاسفة بمحضر كبار العلماء »(١٣) •

ما سبق يدلنا على أن الأندلس أبطأت فى حركتها العقلية ، وانه لينبغى أن نحترس من هذا الفصل الذى عقده (صاعد) فى كتابه (طبقات الأمم) يستعرض فيه العلم فى الأندلس ، ويذكر أسماء جماعة كانوا فى القرن الرابع كأبى عبيدة البلنسى ، والواقع أن هؤلاء يعدون فى المثقفين بالثقافة العربية العامة ولم يكونوا علماء بالمعنى الدقيق ، وكان اسراع الأندلس الى الاهتمام بالثقافة الدينية ، بل كادت ان لا تشغل نفسها بشىء سواها يقول المقرى : « وقراء القرآن بالسبع، ورواية الحديث عندهم رفيعة ، وللفقه رونق ووجاهة ، ولا مذهب لهم الا مذهب مالك » •

وليس من شك فى أن ذلك كله أدى الى بطء تنامى الحياة العقلية وعرقلتها فى الأندلس • ولم يعن الأندلسيون بتلك العلوم الا بعد القرن الخامس الهجرى حين أبيح للعلماء أن يجهروا بآرائهم فى هذه الفنون، وحينذاك برهن الأندلسيون على أنهم أصحاب مواهب فذة وملكات قوية، فقد جددوا معالم الفلسفة وأحيوا علوم المنطق والحكمة ، بعد أن كاد يمحى رسمها بالشرق لاستيلاء السلاجقة ثم اغارة التتار على بغداد(١٤) •

وأول فيلسوف أندلسى هو ابن ماجة المتوفى عام ٥٣٣هـ ، فالأندلس لم تتعمق الفلسفة الا فى عصر متأخر ، ولعلها من أجل ذلك اعتنقت

---

(١٣) ١/٣١٤ : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب طبع ليدن ابن عذارى •

(١٤) ٤٢ : تاريخ الأدب العربى فى الأندلس •

مذهب الامام مالك ، وفضلته على غيره من المذاهب ، لأنه لم يكن معقدا بفلسفة ، ولاحظ ذلك ابن خلدون ، وعلل له ببداوة أهل الأندلس،وانهم لم يكونوا يعانون الحضارة التى لأهل العـراق فآثروا هذا لمناسبة البداوة بينهم وبين أهل الحجاز(١٥) • ويمكن أن نعلل للعلة نفسها عدم اتساع مد التفكير الاباحى الماجن عندهم على نحو ما عرف فى المشرق ، كما أنه لم يظهر عندهم شاعر متفلسف متشائم كأبى العلاء •

واذا تركنا الحياة العقلية فى الأندلس الى الحياة الأدبية وجدنا ظاهرة التقليد للمشرق واضحة جلية اذ تصاغ الكتب الأدبية عند الأندلسيين على شكل الكتب الأدبية عند المشارقة ، تصاغ « العقد الفريد » على شكل« عيون الأخبار » ، ويراه الصاحب بن عباد فيقول : هذه بضاعتنا ردت الينا ، ويصاغ كتاب « الحدائق » لابن فرج الجيانى فى أهل زمانه على شكل كتاب « الزهرة » للأصبهانى(١٦) ، ويصاغ كتاب « الذخيرة » لابن بسام على شكل كتاب « اليتيمة » للثعالبى(١٧) ، وكل ذلك دليل على أن الحركة الأدبية فى الأندلس قد صيغت صياغة الحركة الأدبية فى المشرق ، وقد نعجب لذلك ، ولكن من يتعمق دراسة الأندلس يعرف سرعة الاتصال بينها وبين المشرق ، بين الأندلس وبغداد ، فما من عالم نبغ هنالك ، ولا أديب نبه شأنه ، ولا لغوى ملأ المجالس ، وتصدر الصفوف،الا وقد تتلمذ لبغداد ودمشق ومصر والقيروان ، وأخذ عن علمائها ، وجلس الى أدبائها ، وتلقى عن أئمتها ، وروى عن الثقات من أهلها ، ثم تحدث عن ذلك فى جهارة صوت واعتزاز نفس(١٨) ، ومن لم يذهب من المشرق الى

---

(١٥) ٣١٥ : مقدمة ابن خلدون •

(١٦) ١/٢ الذخيرة لابن بسام طبع جامعة القاهرة •

(١٧) راجع مقدمة كتاب الذخيرة •

(١٨) ٦٣ تاريخ الأدب العربى فى الأندلس •

الأندلس أرسل اليه بآثاره ، أو نقلها اليه هؤلاء الأندلسيون الذين يجوبون الأقطار الشرقية للبحث عن المنابع الهامة للأدب والثقافة،فقد نقل كتاب « البيان والتبيين » و « التربيع والتدوير » فى حياة الجاحظ الى الأندلس(١) ، وأرسل أبو الفرج الأصبهانى لعبد الرحمن الناصر نسخة من كتابه « الأغانى » ، كما نقل ديوان المتنبى فى حياته الى الأندلس ، نقله ابن الأشج الذى قابل المتنبى فى الفسطاط عام ٣٤٦ للهجرة ، وبذلك استطاع ابن هانىء المعاصر له ان يتأثر به تأثرا واضحا، ويذكر صاحب الذخيرة أن ابن شهيد كان يستعير معانى أبى العلاء فى بعض أشعاره(٢) ، فاذا عرفنا أن ابن شهيد توفى عام ٤٢٦ للهجرة ، بينما توفى أبو العلاء عام ٤٤٩هـ .

عرفنا الى أى حد كانت سرعة الاتصال بين الأندلس والمشرق،وقد كانت هناك محاولات جادة للاستقلال الثقافى عن المشرق ، من مثل محاولة عبد الرحمن الداخل منذ دخل الأندلس ، وعمله الدءوب فى أن يستقل بها ثقافيا معتمدا على ما تملكه البلاد من طاقات خلاقة وجهود شاقة ، حتى لا تكون ذيلا فى مؤخرة المشرق ، وكانت هذه الروح الجبارة كفيلة بأن تحقق للأندلس معنى الاستقلال الفكرى والأدبى ، الا أن الأندلسيين فيما بعد ، كانوا أشد حاجة الى المشرق منها فى أى وقت مضى مما جعل العلاقة بينهما تتوثق أكثر وخاصة فى المجالات الثقافية الفكرية منها والأدبية .

ومن يقرأ فى الذخيرة ويتابع الأدباء والشعراء فى تقليدهم لأدباء المشرق وشعرائه يخيل أن القوم قد حبسوا أنفسهم داخل الاطار العام للأدب العربى ، فهم يضعون المشرق نصب أعينهم يتخذون منه مثلهم

---

(١٩) ٦/٧٤ : معجم الأدباء .
(٢٠) ١/٢٨٧ : الذخيرة .

الأدبية العليا،وقد كتب ابن شهيد رسالة «التوابع والزوابع»وذكر فيها أسماء شياطين الشعراء الذين أجازوه ، وكلهم من شعراء المشرق الذين نعرفهم ، أمثال أبى نواس وأبى تمام والبحترى والمتنبى(٢١) ، وكان الأندلسيون حتى عصر ابن خلدون لا يزالون يقولون : « أن أصول علم الأدب وأركانه أربعة دواوين ، وهى أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادى »(٢٢) .

وليس فى هذه الأصول والأركان شىء لأهل الاندلس ، وما نظن أننا نسرف اذا قلنا بعد ذلك ان الاندلسيين كانوا يعيشون على تقليد أهل المشرق،ولعل ذلك ما جعل صاحب الذخيرة يقول : « ان أهل هذا الأفق أبو الا متابعة أهل المشرق يرجعون الى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث الى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما»(٢٣) .

واذا بحثنا عن أسباب هذا التقليد فى الأدب والنواحى الفكرية عامة وفى مذاهب الشعر خاصة وجدنا أن للبيئة أثرا واضحا فى أن يكون لكل من المشارقة والمغاربة مميزاته التى ينفرد بها عن سواه فى عقله ورأيه وذوقه وحسه ، وتفكيره ووعيه ، فالموطن الذى ينشأ فيه الأديب أو العالم ، لأن للأرض التى أقلته ، السماء التى أظلته والهواء الذى تغذى به ، والهواء الذى امتلأت به رئته ، فاعلية فى تكوينه ومعنى واضح فى ذوقه ورأيه ووعيه وعقله وتفكيره وفهمه وتقديره للأشياء وحكمه على الحوادث ، هذا منطق لا ينكره أحد ولا يكابر فيه انسان .

---

(٢١) ١/٢١٠ : الذخيرة رسالة التوابع والزوابع .
(٢٢) ٢٠٨ : المقدمة .
(٢٣) ١/٢ : الذخيرة .

وعلى هذا فان الفرق بين المشارقة والمغاربة أو بعبارة أخرى من الفكر العربى فى بغداد والعواصم الاسلامية الأخرى هنـالك ، ومن الفكر العربى فى الأندلس له عدة اعتبارات : أولا : البيئة ، فالبيئـة الطبيعية أو الاجتماعية فى الأندلس اختلفت كل الاختلاف عن البيئـة فى بغداد أو حلب أو مصر وعلى الرغـم من أن الأندلس اقليم كرمت تربته ، الا أن أهله لم تكن لهم فى تلك البلاد تلك المدنية وتلك الحضارة التى كان ينعم بها سكان المشرق وقد سيطر المسلمون على العراق والشام بعد أن تعاقبت عليهما حضارات ، وسـادت فيهما مدنيات ، وتنـاوب السلطان فيهما (٢٤) البابليون والآشـوريون والكلدانيون ، وكان لهم اشعاعات من النـور تلقى الضوء على ما حولهم من المدن والممـالك ، ولهذا فاننا نستطيع أن نقول أن العرب فى المشرق قد وقفوا أمام هذه المدنيات ذاهلـين مأخوذين ، ولم يسعهم الا أن ينـزلوا على حكمهـا ويخضعوا لسيطرتها ، ويأخذوا منهـا بالنصيب الذى اسـتطاعوا أن يأخذوا به .

أما مصادر الثقافة والمعرفة والعلم والأدب والعقل والفكر ، فانها كانت الى حد ما متباينة ، لا تكاد تلتقى أو تتقـارب ففى الوقت الذى كان فيه المشارقة يفسحون الطريق لكل ما هو أجنبى ليغزو عقـولهم ويسيطر على تفكيرهم ويشغل أوقات فراغهم ، كان الأندلسـيون على النقيض من ذلك يقدمون الحذر ويغلبون الحيطة ، ويقابلون كل جديد بالشك والخوف ويجعلون الأولوية فى العلوم والمعـارف ، لما يتصـل بالكتاب والسنة ، وكان لذلك كله نتائجه .

وقد كانت حركة الانطلاق والتحرر فى المشرق عاملا من عوامـل التجـديد فى مظاهر التفكير والنهـوض والرقى والتقدم والانتعـاش

---

(٢٤) ٧٢ وما بعدها تاريخ الأدب العربى فى الأندلس .

والازدهار والخلق والابتكار اذ أجدت على الأدب فى أنماطه التى لم تكن مألوفة ، ومقاييسه التى لم تكن معهودة وصوره التى لم تكن موجودة من قبل ، وحين ترجمت الكتب اليونانية والرومانية والهندية والفارسية ، وعرف الناس الحكم البالغة والأمثال السائرة،وكذلك أبناء الملوك والأمراء ، فمالوا الى ترتيب أفكارهم وربط معانيهم ، وسلسلة أفكارهم وانتقلوا الى طور أحسن ، وعهد أفضل وحال أجمل مما عرفوه من المعارف المستحدثة والعلوم الطارئة والفلسفة الواحدة .

بينما تمكنت العقيدة من نفوس الأندلسيين ، ونماها الفقهاء الذين كانوا للحكام بالمرصاد يحاسبونهم،وكان الحكام يخافون بطش الفقهاء، لأن العامة من ورائهم ينحازون اليهم ، ونجم عن ذلك أن لم يكن فى الأندلس الحاد ولا زيغ ولا فرق متعددة كما كان الحال فى المشرق اثر دراسة الفلسفة وأباحتها ثم التسامح الدينى وغير الدينى .

فساوت الثقافة فى الأندلس سيرها البطىء وخطت خطاها الوئيدة فى دائرة ضيقة لأن البلاد لم تكن فى حال من العافية تساعد على هذا الانتعاش المطلوب حتى تبادل أهلوها الرحلة الى المشرق وأخذوا عنهم، ونقلوا معارفهم وتلقوا عن كبار الأساتيذ والفحول منهم(٢٥) .

الشعر فى الأندلس :

رأينا فيما سبق أن الأندلس تؤسس حياتها العقلية والأدبية على أسس شرقية وجعلها ذلك تعيش فى فنها وشعرها داخل الاطار المشرقى العام ، اذ كانت الفكرة الأساسية عند من يريد أن يكتب شعرا أن يكون شعره على نمط الشعر عند المشارقة القدامى أو العباسيين .

---

(٢٥) راجع ٧٤ ـ ٧٥ : المرجع السابق .

ومعنى ذلك أن الشاعر الأندلسى لم يحاول أن يخضع الشعر العربى لشخصيته ، بل رأيناه يخضع لاطار الشعر المحاكى،فهو يخضع لموضوعاته المعروفة فى المشرق كما يخضع لأفكاره ومعانيه وأخيلته وأساليبه ، ولعل من المهم أن نعرف انه مرت على الأندلس فترة طويلة قبل أن تجد شاعرا ممتازا تستطيع أن تلقى به شعراء المشرق ، وأكبر الظن أن ذلك يرجع الى كثرة ما كان فيها من فتن وثورات وخصومات، فكأنها لم تهدأ لنفسها حتى تستطيع أن تنتج شاعرا ممتازا ، اذ كانت الحروب الداخلية بين العرب بعضهم البعض ، وبينهم وبين البربر من جهة ، ثم بينهم وبين المسيحين من جهة أخرى قد شغلتهم كثيرا .

ومهما يكن فقد تمثل الأندلسيون فى الشعر مثل المشارقة ، حيث تناولوا فى أشعارهم جميع الأغراض التى تناولها المشارقة ، فمدحوا وهجوا ورثوا وتغزلوا وفخروا ، ولكن قصروا عن المشارقة خاصة فى شعر الحكم والأمثال ، لأن حياتهم رغدة هنية فغرقوا فى النعيم الزائل، وأقبلت الدنيا عليهم ، فلم يحسوا بمكروه ، ولم تنزل بهم نازلة،وسارت الأيام على هذه الوتيرة الى أن لاحت نذر الشر وبوارق الأغراب وقرب أفول شمسهم ، فانطلقت الألسنة ترسل الشوارد ، والقلوب تستنجد الماضى ، وزرفت العيون فكان الرثاء والحكم مع زوال الدولة أو قرب نهايتها ، وان كان تفوقهم واضحا فيما يتصل بشعر الطبيعة . وقد زادوا عن المشارقة فى أمور شعرية أهمها :

الوصف : وبخاصة مشاهد الكون ووصف الطبيعة ومفاتنها،ووصف الحياة ومباهجها ، ووصف مجالس الشراب واللهو ، وكذلك القصور والحدائق ، بل لقد تناول الوصف عند الأندلسيين كل ما تقع عليه العين من الأشياء الحقيرة والعظيمة يساعدهم عليه الفراغ من الشواغل ، وبلغ من تعلقهم بالوصف أنهم كانوا يبدأون به قصائدهم حتى ولو كانت فى الرثاء ، ولقد ابدعوا فى الوصف أيما ابداع ، حتى ليخيل للانسان

أن ما يقرؤه من وصف لا يفترق فى كثير ولا قليل عن الحقيقة التى يراها أو يلمسها يقول ابن زيدون :

انى ذكـــرتك بالزهـــراء مشـــتاقا
والأفق طلق ووجـــه الأرض قد راقا
وللنســـيم اعتـــلال فى أصـــائله
كأنمـــا رق لى فاعتل اشـــفاقا
والروض عن مـــائه الفضى مبتسم
كمـــا حللت عن اللبات أطـــواقا
يوم كأيام لذات لنـــا انصـــرمت
بنتا لهـــا حين نـــام الدهر سراقا
فلهو ما يستحيل العين من زهـــر
جال الندى فيه حتى مال أعنـــاقا

الاستنجاد ورثاء الممالك الزائلة :

كثـــيرا ما فكر أصحاب البـــلاد الأصليين فى الوثوب على عـــرب الأندلس كلما وانتهم الفرصة لانتزاع الممالك من بين أيديهم وتخليصها من حكمهم ، والعمل على أن تعود الحياة بتلك المماليك ســـيرتها الأولى قبل الاسلام .

فقد أخذ السكان الأصليون يقتطعون البلاد وينتقصون أطرافها، ويستردون أجزاءها ، حتى عادت الى سلطانهم ، وكان العرب لا حول لهم ولا قوة أمام تلك الهـــزائم المتكررة سوى البكـــاء المر ورثاء تلك الممالك الزائلة بشعر يفيض بالأسى والحزن العميق ، وكثيرا ما كانوا يغترون بالآمال الكاذبة فيستنجدون بملوك الاسلام والمسلمين المعاصرين لهم ، وهيهات أن يستمع أحد لصيحتهم ، أو يخف لنجدتهم ويعد هذا الغرض من أصدق الأغراض لأنه صادر عن عاطفة صادقة حزينة ، ومن

قلب ينفطر أسفا ، ومن أشهر قصائدهم فى هذا الموضوع قصيدة أبى بكر بن اللبانة فى رثاء دولة بنى عباد والتى أولها :

تبكى السماء مزن رائح غادى على البهاليل من أبناء عباد

« ولئن كان هذا النوع قد وجد فى المشرق فى بعض الأحوال حين كان بعض الأعداء يغيرون على البصرة — فى خلافة العباسيين — اذ هتكوا فيها الحرمات ، واستباحوا الأموال والأعراض ، ودعا ذلك ابن الرومى أن يقول قصيدته المشهورة التى أولها :

زاد عن مقلتى لذيذ المنام
شغلها عنه بالدموع السجام
أى نوم من بعدما حل بالبصرة
ما حل من هنات عظام
أى نوم من بعدما انتهك الزنج
جهارا محارم الاسلام
ان هذا من الأمور لأمر
كاد ألا يقوم فى الأوهام

الا أن هذه الحادثة وأمثالها لم تعد أن تكون زوبعة ثم تهدأ ، أو عاصفة ثم تنتهى ، أو نارا تشتعل ثم تنطفىء ، أو ثورة يعلو صياحها ثم يهبط ، ولم يكن الشعر فيها من الكثرة الى حد أن يكون غرضا من الأغراض التى يهتم بها الشعراء ليجعلوها بابا من الأبواب ، أما بكاء المدن الزائلة — فى الأندلس — والرثاء لها ، فقد كان حينئذ موضوعا قائما بنفسه ، وبابا من أبواب الشعر ، أبدعوا فيه القول ، وأجادوا فيه الصياغة »(٢٦)، يقول أبو المطرف بن عميرة المخزومى — يبكى بلنسية بعد استيلاء ملك أرغون عليها سنة ٦٣٦هـ :

---

(٢٦) ١٧٩ — ١٨٠ تاريخ الأدب العربى فى الأندلس .

ألا أيها القلب المصرح بالوجد
أمالك من بادى الصبابة من بد
وهل من سلو يرتجى لمتيم
له لوعة الصادى وروعة ذى الصد
يحن الى نجد وهيهات حرمت
صروف الليالى أن يعود الى نجد
أمن بعد رزء فى بلنسية ثوى
بأحنائنا كالنار مضرمة الوقد
يرجى أناس جنة من مصائب
تطاعن فيهم بالمثقفة اللد
ألا ليت شعرى هل لها من مطالع
تعاد الى ما كان فيها من السعد
وهل أذنب الأبناء ذنب أبيهم
فصاروا الى الاخراج من جنة الخلد

المجون : كان للمجون فى الأندلس سوق نافقه ، وكان للمرح مجال أى مجال ، وكانت النكتة البارعة اللاذعة تعد من سمات أولئك المرحين ولا تكاد تفارقهم ، وكثيرا ما كانت لهم مجالس لهو يقضونها فى العبث والشراب ، ويرجع هذا الى وفرة الخير ، وكثرة النعيم ، وجمال الطبيعة وسحر مظاهرها ، وقد برع فى هذا النوع ابن شهيد وولادة وابن زيدون وابن قزمان وغيرهم يقول أحمد بن طلحة أحد وزراء بنى عباد المؤمن .

يقول أخو الفضول وقد رآنا
على الايمان يغلبنا المجون
أتنتهكون شهر الصوم هلا
حماه منكمو عقل ودين

فقلت أصحب سـوانا نحن قـوم
زنـادقة مذاهبنـا فنـون

نظم العلوم والفنون :

سبق المشارقة الأندلسيين فى هذا النوع ، ولكنهم أربوا عليهم فى هذا المضمار ، وكان لهم فيه سبق وغلبة ، فقد نظموا فى النحو والصرف والعروض والبديع والفقه والتاريخ وغير ذلك من العلوم المختلفة،حيث نظم أحمد بن عبد ربه فى العروض والتـاريخ ، ونظم أبو طـالب بن عبد الجبار فى تاريخ المرابطين ، وابن مالك ألفيته .

ومع ذلك التفوق النسبى للأندلسيين على المشارقة فى الموضوعات التى ذكرنا ، فاننا لا نكاد نعـرف للأندلس شاعرا ممتازا فى القرنـين الثانى والثالث للهجرة سـوى يحيى بن الحكم الغزال شاعر الأمـير عبد الرحمن الثانى (٢٠٦ ــ ٢٣٨هـ) ، وقد سفر بينه وبين أمراء أوربا، وقدم فى بعض هذه السفارات على أحـد أمراء النورمان فى جـزائر الدنمارك .

وأثبت ابن دحية بعض أشعاره فى (المطرب) وهى أشعار جيدة. وأهم منه ابن عبد ربه صاحب كتاب (العقد الفريد) م ٣٢٨هـ ، فقد تعلق بصنع الشعر ، وترك فيه ديـوانا لم يصلنا ، غير أن ما نقـله ياقوت وابن خلكان عنه يدل على أنه تكلف فى شعره كقوله :

يا ذا خط العـذار بوجهه خطين هاجا لوعـة وبلابلا
ما صح عندى أن لحظك صارم حتى لبست بعارضيك حمائلا

وواضح ما فى هذا التصوير من تكلف حيث وصف اللحظ بالسيف الصارم وهو تشبيه مقبول وطبيعى حتى الآن ، ولكنه أراد أن يبعـد

ويغرب فزاد تلك البقية التى تجعل العذارين حمائل للسيف ، ومع ذلك فقد كان لابن عبد ربه قطع أخرى لا يبدو فيها متكلفا • يقول :

وبـدت لى فاشرق الصـبح منها
بين تلك الجيـوب والأطـواق
يا سـقيم الجفون من غير سـقم
بين عينيك مصـرع العشـاق
ان يـوم الفـراق أفظع يـوم
ليتنـى مت قبـل يوم الفـراق

وله قطع أخرى أكثر دقة وعذوبة من هذه ، ولعـل من المهم أن نعرف أن الشعر الأندلسى يفقد الوحدة منذ ابن عبد ربه بسبب التكلف، حيث يلجأ الشاعر اليه ، وشعراء الأندلس متفاوتون فى الدرجة،فمنهم من يجعل التكلف تكأة وشغلا ومنهم من يتعاطاه فى بعض شعره،ويتخلى عنه فى بعضه الآخر ، وهنا يحار الباحث فى تعليل هذه الظاهرة ، هـل الشاعر يذهب مذهب الصانعين أم المتصنعين أم هو من مذهب المصنعين فاذا ما وجدنا قطعة كان فيها الشاعر صاحب صنعة ، كانت الثانية فيها تصنيع والثالثة فيها تصنيع على غير نظام أو نسق معين •

ولذلك كان الباحث يضطرب فى الحكم على الشاعر الأندلسى،فهو حينا يصوغ على مذهب وذوق الصانعين ، وأحيانا أخرى نجده يسـير على ذوق المصنعين أو المتصنعين ، وكذلك الأمـر ان هو حكم عليـه بأحد الذوقين الآخرين ، وقد يكون من أسـباب ذلك أن هذه المذاهب كانت تتمايز وتتباين عند المشرقيين تباينا واضحا لأنها وليدة التطور الطبعى فى الحياة والحضارة ، فأولى الصنعة يسبقون أرباب التصنيع ، ويأتى المتصنعون من ورائهم ، أما فى الأندلس فانه لا يوجد فارق كبير يميز بين هذه المذاهب ومن أخذ بها حيث لم يسعفهم تطورها فى المشرق

رغم وقوعهم فى دائرة التقليد ــ بأن يأتوا بجديد يكون سمة فــارقة لا بين مذاهب المشرقيين وتقليــد الأندلسيين لهــا فحسب ، بل بين الشعراء الأندلسيين أنفسهم •

لأن نهضة الشــعر فى الأندلس بدأت متــأخرة عن نشوء هــذه المذاهب فى المشرق ، فكان الشــعراء يحاكونها جميعــا فى غير نظــام ولا نسق واضح • وفى وقفة عجلى سنتناول شاعرين مهمين ظهرا بعد ابن عبد ربه فى القرن الرابع ، هما ابن هــانىء الأندلسى وابن دراج القسطلى بالحديث على ضوء المقاييس السابقة قبل أن نستعرض بقية ما يتصل بالبحث •

ابن هانىء الأندلسى : هو أبو القاسم محمد بن هانىء(٢٧) ، عربى الأصل ينسب الى المهلب بن أبى صفرة الأزدى الذى اشتهر بحــروبه وانتصاراته على الخوارج وفى خراســان لعصر بنى أمية • ويســمى ابن هانىء الأندلسى تمييزا له عن ابن هانىء الحكمى المكنى بأبى نواس الشاعر المعروف ، وقد ولد بأشبيلية عام ٣١٦ للهجرة ، وكان أبوه قد هاجر اليها من المهدية فى شمالى افريقيا وعنى بابنه وبتربيته ، ولما تفتح وعيه ونما تفكيره وتيقظ حسه وتطلع ذهنه ، واشتاقت نفسه الى المزيد من العلم ، أخذ يجد فى البحث عن الأساتذة وكبار المفكرين والفلاسفة، وقد اهتدى بصافى قريحته وواسع عقله الى أن يصل أسبابه بكثير من العلماء الكبار ليستفيد من علمهم وأدبهم،وقد نجح الى حد بعيد فى تكوين

---

(٢٧) ٤/٢ : وفيات الأعيان ص ٧٤ مطمح الأنفس للفتح بن خاقان (طبع الجوائب) ، ص ١٠٣ التكملة لابن الأبارص ٣/١٢ : الاحاطــة للسان الدين الخطيب ٢/٩٧ المغــرب (لقســم الأندلسى ــ طبــع دار المعارف) ، ١٩/٩٣ : معجم الأدباء لياقوت •

تلك العقلية الجبارة التى استطاعت أن تحتل هذه المكانة من تاريخ الأدب والشعر(٢٨) .

وقد تدفق الشعر على لسانه ، فلمع اسمه ، وقربه منه حاكم بلدته ، غير أنه أكثر من الانهماك فى الملاذ ، وأظهر استهتارا وزندقة .

يقول ياقوت فى ترجمته له : « أديب شاعر مفلق ، أشعر المتقدمين والمتأخرين من المغاربة ، وهو عندهم كالمتنبى عند أهل المشرق، وكان متهما بالفلسفة يسلك فى أقواله وأشعاره مسلك المعرى ، ومازال يغلو فى ذلك حتى تعدى الحق ، وخرج فى غلوه الى ما لا وجه له فى التأويل ، فأزعجه أهل الأندلس واضطروه الى الخروج من وطنه ... وكانت وفاته ليلة الأربعاء سنة ٣٦٢هـ وقد جاوز الأربعين » . نقم عليه أهل أشبيليه وتجاوزته نقمتهم الى الحكم الذى احتضنه ورعاه،فنصحه أن يبتعد عنهم مدة فولى وجهه نحو المغرب وعمره سبعة وعشرون عاما ، وكانت جيوش الفاطميين تتوغل فيها بقيادة جوهر الصقلى،فألم به وقدم اليه احدى مدائحه ، لكنه لم يثبه الثواب الذى كان يرجوه ، فتركه الى جعفر ويحيى ابنى على ، وكانا واليين على الزاب فى المغرب الأوسط للمعز الفاطمى ، فأجزلا له فى العطاء ، وسمع به المعز فطلبه متهما ، وقدم عليه ابن هانىء ، فبالغ فى الانعام عليه ، حتى تحول اليه بقلبه ، وآمن بعقيدته الشيعية وكل أصولها المذهبية ، وخرج مع المعز حين فتح مصر ينشده مدائحه،ولكنه عاد ليحضر أولاده وأهله،ووصل بهم الى برقة ، ونفجأ بقتله فيها سنة ٣٦٢هـ ، وربما دبر هذا القتل بعض خصوم المعز هناك حتى لا ينعم بهذه التحفة النادرة .

---

(٢٨) ٢٧٥ تاريخ الأدب العربى فى الأندلس أبو الخشب .

ومن يرجع الى ديوانه يجد أكثره فى المديح ومعانيه فيه هى المعانى نفسها التى تلقاها فى الشعر العربى عند العباسيين ومن قبلهم ، وان كان الملاحظ فى مديحه للمعز وقوفه الطويل عند صفاته الامامية،وشعره فى هذه الناحية مرجع مهم لمن يبحثون فى العقيدة الفاطمية .

وكل ما كان يؤمن به دعاتهم من صفات علوية فى الامام،اذ كانوا يؤمنون بأنه معصوم وأنه عالم بالظاهر والباطن ، وأنه سيكون شفيعا لأوليائه يوم القيامة ، ولايزالون به حتى يضعوه فوق البشر ، ويضفون عليه من القدسية والجلال ما يجعله روحا من الله،بل ما يجعله سبب الوجود وعلة الحياة ، وتكثر هذه المعانى وما يتصل بها فى شعر ابن هانىء كثرة مفرطة كقوله(٢٩) :

وما كنه هذا النور نور جبينه ... ولكن نور الله فيه مشارك

وقوله(٣٠) :

ولله علم ليس يحجب دونكم ... ولكنه عن سائر الناس محجوب

وقوله(٣١) :

مؤيد باختيار الله يصحبه ... وليس فيما أراه الله من خلل
وقد شهدت له بالمعجزات كما ... شهدت لله بالتوحيد والأزل

وقوله(٣٢) :

أرى مدحه كالمدح لله انه ... قنوت وتسبيح يحط به الوزر

---

(٢٩) الديوان (طبعة زاهد على) ص ٥١١ .
(٣٠) ٦٦ الديوان .
(٣١) ٩٥ الديوان .
(٣٢) ٣٤٢ الديوان .

وقـــوله (٣٣) :

هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعلة ما كانت الأشياء

وقـــوله (٣٤) :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وقوله حين نزل المعز بمدينة رقادة بجوار القيروان (٣٥) :

حـــل برقـــرادة المسيح حـــل بها آدم ونـــوح
حل بها الله ذو المعـــالى وكل شيء ســـــواه ريح

ففى الأبيات السابقة نرى أن المعز فى رأيه تحل فيه أرواح الأنبياء، بل يحل فيه الله ــ تعالى عن ذلك علوا كبيرا ــ ونعرف عن المتنبى شيئا من هذه المبالغات ، غير أن ابن هانىء تجاوز فيها كل حـــد ، فهو يردد عقيدة الشيعة الاســـماعيلية فى امـــامهم ، وكان هو نفسه من تابعيـــه ومريديه ، ولعل هذا نفسه ما جعل المعز يأسف ويتحسر عليه حين بلغته وفاته ، كما أن الأبيات السابقة نفسها تحتمل تفسيرا آخر ، وان كنـــا نتقدم عليه فى حذر لكثرة هذه المعانى التى يطرقها فى قصائده وتتصـــل بصفات المعز ، هذه الكثرة التى ترجح جانب الصدق أو الاقتناع بما يقول . تحتمل الأبيات معان مضادة لتلك التى توحى بها النظرة الأولى أو العجلى الى ظاهرها وشكلها،فربما يكون ابن هانىء فى قرارة نفسه لم يكن للمعز ذلك التبجيل الذى نراه ، ولا يرفعه الى المقام الذى تشير اليه الكلمات ، وانما هو ساخر ولاذع السخرية ومتهكم أشد التهكم بمن يمدح ، يدفعه الى ذلك نزوحه مطرودا من أشبيلية يريق ماء وجهه

---

(٣٣) ١٥ : الديوان .
(٣٤) ٣٦٥ : الديوان .
(٣٥) ٨١٧ : الديوان .

ـ بعد ان أنكرته بلدته ـ فى سبيل البحث عن ممدوح يتولاه فيعرض بضاعته عليه واذا بالصدف تجعل المعز أمامه ، وكأى مادح ينظم القول رغبة لا تقديرا ومحبة يرسل لشاعريته العنان ، ويبدو فى مدحه كما رأينا متمردا على المسلمات ، خارجا عن حدود اللياقة ، وكأن لسان حاله يقول :

وما قتلتنى الحادثات ولكن وجود الفتى فى غير موضعه قتل

فهو مضطر الى ذلك ، مدفوع بدون قصد ، تجبره الظروف على ركوب الصعب ، فليشف جرحه ولينتقم لنفسه ـ على الأقل وهو يشعر بهذه المعانى وحده ويعرف مراميها فى نفسه ـ دون أن يبدى تأففا ، أو يظهر اعتراضا لا للمعز فقط بل على القدر وحظه أيضا خاصة وان المعانى السابقةتوعز بأنه يملكالجرأة التىبها يخرجعلى التعارف والمعهود لدى الناس ، ولكنه مع ذلك لم يلصق تلك الصفات ولم يبالغ فيها الا مع المعز فى مدحه ، فهو يلمح بالمراد وان صرح بغيره ، ويتهكم بالمعز مع معرفته لعقيدته الشيعية ومكانه منها ـ الذى يرضى بأن يمدح بتلك المعانى ، خاصة والشاعر يأمن عواقب ما يقول ، لأن كلامه صادف محلا حسنا من سامعه • ولقى قبولا عنده ، مع أنه ذم فيما يشبه المدح •

وهذا الشعور عن ابن هانىء هو الشعور نفسه الذى كان يخامر الشاعر المشرقى الفيلسوف المتنبى ، ولسنا أول من يربط بينه وبين المتنبى ، فقد كان الأندلسيون أنفسهم يسمونه متنبى المغرب ، ومن يقرأ ديوانه يجده يحتذى على مثاله فى كثير من أشعاره •

غير أنه لا يستقى منه وحده فقد كان يعجب أيضا بمذهب المصنعين، وفسح فى شعره لأخيلة وصور كثيرة كقوله فى فاتحة احدى مدائحه للمعز (٣٦) :

---

(٣٦) ٣٢١ : الديوان •

فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر وأمدكم فلق الصباح المسفر
وجنيتم ثمر الوقائع يانعا بالنصر من ورق الحديد الأخضر

فقد تصور الجلاد وعراك الأبطال ريحا عاصفا يفوح منه العنبر الطيب ، وهو يهب فى الصباح المشرق • وبالغ فى التصور والتكلف ما شاء حتى تخيل السيوف شجرا له ورق وثمر ، وهم يجنون منه النصر والظفر ، فتصوير المصنعين عنده ينتهى الى هذه المبالغات الغريبة •

والحق أنه كان يحسن فى هذا الباب ، ولعل ذلك ما يجعل قصائده فى وصف أساطيل المعز تروع قارئها ، لما يجد عنده من تفنن فى التصوير ، وهو لا يقف بهذا التفنن عند المديح ووصف الأساطيل ، بل يذيعه فى ضروب شعره الأخرى من غزل وغير غزل ، كمقطوعته المشهورة (٣٧) •

فتكات طرفك أم سيوف أبيك وكئوس خمر أم مراشف فيك

فهو يخلط فى شعره بين مذهبى التصنيع المقتدر عليه ، لأنه يملك أدوات الشاعرية وامكانات الابداع ، والتصنع الذى يبدو أحيانا فى شعره ، وطلبه له يغرب معانيه ويكثف عليها ظلال الشكل فيبعد قوله ، ويصعب فهمه ، وأحيانا تبهت المعانى وتنماع خاصة اذا توغل فى تصنعه وتكلف فى طلبه ، واقتسر فى اقحامه ، وربما استوعبته شخصية المحاكى ، أو المقلد من شعراء المشرق ، فيأتى تصنعه تقليدا باهتا لا يحس فيه بفنية ولا يرقى الى درجة الأصل المقلد •

وهكذا نجد هذا التفاوت الواضح فى شعره ، فهو يميل حينا الى التقليد والتقمص ، وأحيانا أخرى الى الاستقلال والتفنن ، ومما لاشك فيه أنه كان يعجب بالمتنبى ، وانه كان يستوحيه فى كثير من

---

(٣٧) ٥٣١ : الديوان •

قصائده ومعانيه ، ونراه ينفذ مثله فى الرثاء الى ذم الدهر والشكوى من الحياة كقوله فى رثاء غلام(٣٨) :

وهب الدهر نفيسا فاسترد ... ربما جاد بخيل فحسد
كلما أعطى فوفى حاجة ... بيد شيئا تلقاه بيد
خاب من يرجو زمنا دائما ... تعرف البأساء منه والنكد
فاذا ما كدر العيش نما ... واذا ما طيب الزاد نفد

وعلى هذا النحو كان يقتدى بالمتنبى تارة ، ويقتدى بالمصنعين تارة أخرى ، فلا يثبت عند مذهب بعينه ، ومن اقتدائه بالمتنبى عنايته فى شعره بالغريب والقوافى الشاذة ، فهو ينظم على الثاء والحاء ونحوهما من الحروف الصعبة حتى يبرهن على تفوقه ، واذا كنا قد لاحظنا فى غير هذا الموضع على المتصنعين أنهم كانوا اذا عمدوا الى التصنيع لغوا ولفقوا ، فاننا نلاحظ ذلك نفسه عند ابن هانىء ، اذ كان يأتى بالمعانى والأخيلة من بعيد ، وكان يستر ذلك بما تعوده من ضخامة التعبير • روى الرواة أن أبا العلاء كان اذا سمع شعره يقول • ما أشبهه الا برحى تطحن قرونا لأجل القعقعة التى فى ألفاظه ، ويزعم أنه لا طائل تحت تلك الألفاظ(٣٩) •

وما هذه القعقعة وما يندرج فيها من عدم الطائل والفائدة الا ما نشير اليه من طنطنته بالألفاظ والأساليب الضخمة ، فاذا ما بحثنا فى هذه الأساليب لم نجد شيئا غير التلفيق واللف والاشارة الى المعنى من بعيد ، ولعل ذلك ما جعل ابن رشيق يقول عنه : « وفرقة أصحاب جلبة وقعقعة بلا طائل معنى الا القليل النادر كأبى القاسم بن هانىء» ومن جرى مجراه فانه يقول أول مذهبته :

---

(٣٨) ٣٤٥ : الديوان •
(٣٩) ٢/٥ : وفيات الأعيان •

أصاخت فقالت وقع أجرد شيظم وشامت،فقالت : لمع أبيض مخذم
وما ذعرت الا بجرس حليهـــا ولا رمقت الا يرى فى مخـــذم

وليس تحت هذا كله الا الفساد وخلاق المراد ، ما الذى يفيدنا أن تكون هذه المنسوب بها ليست حليها ، فتوهمته بعد الاصاخة والرمق وقع فرس أو لمع سيف ، غير أنها مغزوة فى دارها ، أوجاهلة بما حملته من زينتها،ولم يخف عنا مراده أنها كانت مترقبة، فما هذا كله »(٤٠) •

وما نراه فى هـذا النص ان ابن رشيق يلاحظ عـلى ابن هانىء شيئين : الأول انه قد تعلق بمعنى لا طرافة فيه ، والثانى أنه لف طويلا حول تعبيره عن فكرته قبل أن يؤديها ، وكأنى به تأثر قول المتنبى :

يرون من الذعر صوت الرياح صهيل الجياد وخفق البنود

فالمتنبى يقول ان أعداء الممدوح فروا منه ، وهم يظنون فى أثناء فرارهم أن صوت الرياح صهيل الجياد ، وخفق البنود لشـدة فزعهم وخوفهم ، فجاء ابن هانىء ونقل هذا المعنى من وصف الحرب الى شعر الغزل ، ودار حوله هذا الدوران الطويل ، فاذا صاحبته تتوهم لخوفها ان صوت حليها وقع اقدام فرسه ، وأن لون خلخالها لون سيفه ، وهل بعد هذا تكلف ؟ لأنه تعبير لم يجلبه فن ولا زينـة وانما جلبه تصـنع ابن هانىء وتجميعه الصور والأفكار العباسية وما يشفعه بها من نقـل ونص ودوران •

على أننا نعود فنلاحظ مرة أخرى أن هذا الشاعر المتصنع كان يستخدم أدوات التصنيع ، وخاصة امكانات التصوير ، غير أنها تحولت فى بعض جوانبها عنده الى ضروب جديدة من التكلف والتصنع ، وهذا

---

(٤٠) راجع العمدة لابن رشيق •

هو معنى ما نقوله من أن الشـــاعر الأندلسى لا يصطفى منهجا عباســيا واحدا بل موزع بين الأشكال الفنية للمشارقة ، بلا تجريد ولا تحديث مذهب أو استحداثه • وهو حين يعايش منهجا عباسيا نراه لا يستمر فيه ، بل يخلط بينه وبين غيره من المناهج ، وهذا ابن هــانىء أقــرب الأندلسيين الى ذوق التصنع نراه يجمع فى شعره بين أدوات التصنيع والتصنع جميعا ، فاذا قرأنا له القطعة التالية وجدناها امتلأت بالصور والتشــبيهات يقول :

كأن رقيب النجم أجـــدل مرقب
يقلب تحت الليــل فى ريشة طرفــا
كأن بنى نعش ونعشــــا مطــافل
بوجــرة قد أضللن فى مهمــة خشفا
كأن ســـــهيلا فى مطالــع أفقـــه
يفـــارق ألف ام يجــد بعده ألفـــا
كأن ســـهاها عاشـــــق بين عـــود
فآونة يبـــــدو ، وآونـــة يخفــى
كأن معلى قطبهـــــا فـــــارس له
لواءان مركوزان قـــــد كره الزحفا
كأن قدامى النســـر ، والنسر واقع
قصصن فلم تسم الخوافى به ضعفا

ويمضى فى القصيدة على هذا النحو يصنع لهذه التشــبيهات التى يحس الانسان ازاءها أنها جاءت لتعبر عن تلفيق لا عن شعور وجمال، وكل ما هناك أن الشاعر يريد اثبـــات مهارته باســتخدام (كأن) وما يتبعها من صور وأخيلة ، وعلى هذا النمط كان الشاعر الأندلسى يجمع فى شعره بين صور التصنيع والتصنع جميعا•ثم ننتقل الى نموذج آخر وهو واحد من شعراء هذه الفترة استزادة فى جلاء فنية شعراء الأندلس•

ابن دراج القسطلى :

على الرغم من أن ابن دراج القسطلى كان من الشعراء الذين نالوا الشهرة فى المشرق والغرب على السواء،فان الكتب التى ترجمت له، أو اقتطفت بعض أشعاره لم تحفظ لنا بالكثير عن أخبار حياته الطويلة التى زادت على سبعين سنة .

واسمه بالكامل أحمد بن محمد بن العاصى بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن دراط(٤١) وكنيته أبو عمر . كان ذا نسب بربرى عريق ، فابن سعيد يقول : ان عائلته تداولت على رياسة بلده « قسطلة » — والذين دخلوا الأندلس من البربر فى الرعيل الأول من فاتحيها المسلمين لم يستقروا فى هذه البلاد حتى تأقلموا بسرعة مذهلة ، وهكذا لم يمض قليل من الوقت حتى اندمجوا فى المجتمع الأندلسى اندماجا كاملا كما يقول المستشرق ليفى بروفنسال عندما تحدث عن البربر فى المجتمع الأندلسى فى كتابه « تاريخ أسبانيا الاسلامية » ٣/١٦٩ ، وهكذا نرى ان ابن دراج ولد ونشأ أندلسيا خالصا ، فهو لم يشعر قط بعصبيته

---

(٤١) المترجمان الوحيدان اللذان احتفظا لنا بهذا الاسم كاملا هما ابن خلكان فى الوفيات ١/٢٢ ، وابن تغرى بردى فى النجوم ١/٢٧٢ . ومن الغريب أن من ترجموا له من الأندلسيين لم يهتموا بتحقيق ذلك ، وقد حرفت كنيته فى كثير من الكتب التى ترجمت له الى أبى عمرو . ويذكر صاحب كتاب مفاخر البربر ص ٦٣ أن كنيته : أبو محمد ، يضاف الى ذلك أن المستشرق الفرنسى بلاشير فى بحثه عن ابن دراج : (حياته وأدبه) ص ١٠٠ حاشية ايقول ابن المقرى كنى ابن دراج فى أحد المواضع التى تحدث فيها عنه) بأبى الوليد (نفح الطيب ٢/٤٦٧ ط ليدن ، والواقع أن هذا اسم لشاعر آخر كما يشير اليه محقق ديوان ابن دراج د. محمود على مكى ص ٢٢ .

لنسبه الصنهاجى البربرى ، بل هو لا يرى بأسا فى أن يهجو الزعيم البربرى بن عطيه المغراوى حينما أعلن الثورة على المنصور بن أبى عامر، مهددا اياه بسوء المصير على يد الجيوش والأساطيل العامرية :

أراقم تقرى ناقع السم مالها
بما حملت دون الغواة مقيل
اذا نفشت فى زور زيرى حماتها
فويل له من نكزها وأليل

وهو شاعر يقرن بالمتنبى ، عاش فى القرن الرابع وصدر الخامس، وكان كاتب المنصور بن أبى عامر وزير الأمويين،كما كان شاعره(٤٢) ، وقد ذكره الثعالبى فى يتيمته ، وقال عنه : « كان بصقع الأندلس كالمتنبى بصقع الشام ، وهو أحد الشعراء الفحول ، وكان يجيد ما ينظم » .

ويقول ابن بسام : انه « كان لسان الجزيرة شاعرا وأولا حين عد معاصريه من شعرائها المشهورة ، وآخر حاملى لوائها ، وبهجة أرضها وسمائها ، وأسوة كتابها وشعرائها ، له عقد فخرها المحمول وسهم ، وبه بدىء ذكرها الجميل وختم ، هل اسمه من الأمانى محل الأنس ، وسار نظمه ونثره فى الأقاصى والأدانى مسير الشمس وأحد من تضاءلت الآفاق عن جلالة قدره »(٤٣) ، وقال أبو حيان عنه : « أبو عمرو بن

---

(٤٢) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١/٤٢ ، يتيمة الدهر ١/٤٣٨ والجلد الأول من الذخيرة ص ٤٣ ، وبغية الملتمس للضبى ص ١٤٧ ، والصلة لابن بشكوال ص ٤٢ ، مقدمة ديوانه المحقق من ص ٢١ ــ ٢٤ محمود على مكى .

(٤٣) ١/٤٣ : الذخيرة .

دراج القسطلى سيق حلبة الشـعراء العامريين وخاتمة محسنى أهـل الأندلس أجمعين »(٤٤) .

وذكره ابن شهيد فقال : « الفرق بينه وبين غيره أنه شديد أسر الكلام ، ثم زاد بما فى أشعاره من الدليل على العلم بالخبر واللغـة والنسب ، وما تراه من هوكة للكلام ، وملكه لأحرار الألفاظ،وسـعة صدره وجيشة بحره ، وصحة قـدرته على البديع ، وطول طلقـه فى الوصف ، وبغيته للمعنى وترديده وتلاعبه به وتكريره ، وراحتـه بما يتعب الناس ، وسعة نفسه فيما يضيق الأنفاس »(٤٥) .

وواضح من آراء هؤلاء النقاد الذين تناولوه جميعا أن ابن دراج كان شاعرا ممتازا ، حتى ليجعله أبو حيان خاتمة محسنى أهل الأندلس جميعا ، وهى مبالغة من بعض الوجوه ، ولكنها تدل على حقيقة مطوية فيها ، وهى ان ابن دراج يعد من الشعراء الأفذاذ الذين ظهـروا فى الأندلس ، ونبغـوا فى فنهم وبزوا غيرهم ، فيقـرنه صاحب اليتيمة بالمتنبى ، ويظهر أنه كان يتأثره فى شعره تأثرا شديدا لا يقل من تأثر ابن هانىء ، وان كان يلاحظ انه لم يستظهر فى شعره شيئا من العبارات الشيعية والصوفية ، غير أنه بعد ذلك يستظهر جميع خصائص المتنبى ، ولو تجاوزنا تلك الآراء النقدية التى ذكرها أصحاب الكتب والمؤلفات التى أشرنا اليها منذ قليل ، والتى هى فى جماعها آراء غير معللة ، لنقف قليلا عند بعض أشعاره نوازنه بأشعار من المشرق نتعرف من خـلالها على أسلوبه وألفاظه وواقعه وحيواته لقلنا : كان يميل الى الغريب فى شعره من جهة كما يميل الى استعراض ثقافته ومقدرته من جهة أخرى،

---

(٤٤) ١/٤٥ : الذخيرة .

(٤٥) ١/٤٤ الذخيرة .

ثم هو بعد ذلك كابن هانىء يعنى بالفظ الطنان وقعقعاته يقول فى قصيدة يمدح بها الوزير عيسى بن سعيد(٤٦) :

وضيف بحيث الطير تدعى الى القرى
يضـيق به رحب المباءة والنـزل
طـو ووجوه الأرض خصب ومطعم
وعيمـان والجلمود يفهق بالرسل
وحران أوفى ظـمء تسع وأربـع
بحيث تلاقى وافق البحـر والوبل
وسيف يقد البيض والزغف مقدما
يروح بلا غمد ويغدو بلا صـقل

وقد تعلق مثل المتنبى فى مطلع مدائحه بشكوى الدهر والسخط على الناس فى عصره ، وساعده على ذلك أنه كان عصر فتن وثورات على الأمويين واستعداد لظهور ملوك الطوائف ، يقول مصرحا بشكواه وآلامه مخاطبا سليمان المستعين :

بلغت عبدك الخطوب مداها يوم تبليغك النفوس مداها

وفى سنة ٤٠٤هـ (١٠١٤) يمـدح ابن دراج القاسم الحمـودى بقصيدة أولها(٤٧) :

كما استطيل تضللى وتلددى وأروح فى ظلم الخطوب واغتدى

وفيها يصور ما حل به وبأسرته من أهوال الفتنة فى أسلوب مؤثر نابض بالألم يقول :

(٤٦) ٤١ الديوان .
(٤٧) ص ٦٦ الديوان : تحقيق محمود على مكى .

فى ستة ضعفوا وضعف عددهم
حملا لبهور الفؤاد مبلد
شد الجلاء رحالهم فتحملت
أفلاذ قلب بالهموم مبدد
وحدت بهم صعقات روع شردت
أوطانهم فى الأرض كل مشرد
لا ذات خدرهم يرام لوجهها
كن ولا ذو مهدهم بممهد
عاذو بلمع الآل فى مد الضحى
من بعد ظل فى القصور ممدد
ورضوا لباس الجود ينهك منهم
بالبؤس أبشار النعيم الأرغد

ويبدو أن ابن دراج لم يجد لدى القاسم ما كان يؤمل ، وحينئذ قرر مغادرة قرطبة لأول مرة ، فتوجه فى هذه السنة عابرا مضيق جبل طارق الى أخيه على بن حمود بسبته ، وهناك ينشده لاميته المشهورة التى فضلها ابن بسام على هاشميات الكميت وكثير عزة وشيعيات دعبل الخزاعى والسيد الحميرى(٤٨) .

ويظهر أن ابن دراج قد عرف بين الثائرين الناشئين بميله للأمويين اذ كان شاعر ابن أبى عامر — كما قدمنا — فأزورت عنه قلوب الملوك من حوله . يقول ابن حيان : « وكان ابن دراج ممن طرحت به تلك الفتنة الشنعاء ، واضطرته الى النجعة فاستقرى ملوكها أجمعين ،

---

(٤٨) ١/٧٢ الذخيرة ، ومقال عن « التشيع فى الأندلس » بقلم محقق الديوان فى صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد المجلد الثانى ص ١٣٨ — ١٣٩ .

ما بين الجزيرة الخضراء وسرقسطة من الثغر الأعلى ، يهز كلا بمدحه ويستعينهم على نكبته ، وليس منهم من يصغى له ولا يحفظ ما أضيع من حقه ، وأرخص من علقه ، وهو يخبطهم خبط العشاء بمقوله فيصمون عنه الى أن مر بعقوه منذر بن يحيى أمير سرقسطة فألقى عصا سيره عند من بواه ورحب به وأوسع قراه ، فلم يزل عنده ، وعند ابنه بعده، مادحا لهما مثنيا عليهما رافعا من ذكرهما ، غير باغ بدلا بجوارهما ، الى أن مضى بسبيله بعد أن جرت له رحمة الله على احسانه الباهر فى فتنة البرابر ، مع أملاك الجزيرة فى طول الاغتراب والنجعة أخبار شائعة فيها لذى اللب موعظة بالغة »(٤٩) .

وهذا هو الجانب الذى جعله يشتعل شكوى من الدهر ، وقد وجد فى المتنبى قدوته ونموذجه خير مثال ، فاستعار منه هذا الصوت،وذهب يكبره ما وسعه تكبيره ، وأسس على جرسه وأنغامه قصائده تساعده فى ذلك كثرة الفتن التى عاصرها ، ثم تجسيمه للواقع واستمداده تجاربه من هذه الظروف المتغيرة ، فاكسبت شعره فيما يتصل بالشكوى اونا داكنا ونفسا متهدجا ، يخلط بين مذهبى التصنيع والتصنع فى قصائده ، وفوقهما مقدرة وامكانات شعرية جلية ، نستمع اليه وهو يخاطب ابنه مبشرا بما لقى فى رحاب منذر بن يحيى(٥٠) :

ابنى لا تذهب بنفسك حسرة
عن غول رحلى منجدا أو مغورا

---

(٤٩) ١/٤٤ : الذخيرة .

(٥٠) قالها فى منذر بن يحيى حين قدومه عليه سرقسطة وهو حينئذ حاجب سنة ٤٠٨ هـ ص ١٠٣ الديوان ص ١٩٠ أعمال الأعلام للخطيب الذخيرة ٥٦ ـ ١/٥٨ .

فلئن تركت الليـــل فوقى داجيـا
فلقـد لقيت الصبح بعدك أزهـرا

ثم يقـول :

وليعلـــم الأملاك أنى بعـــدهم
ألفيت كل الصـــيد فى جوف الفرا

ورمى عـــلى رداءه من دونـهم
ملك تخـــير للعـلا فتخـــيرا

ضرموا قداحهم على ففـاز بى
من كان بالقـدح المعلى أجـــدرا

وواضح من هـذه الأبيات القليلـة أن ابن دراج يعنى كما قال ابن شـهيد بالخبر واللغة ، فهو هنا يقتنص المثل « كل الصيد فى جوف الفرا » ، ويوظف فكرة جاهلية تتمثل فى ضرب القداح المعروفة عنـد العرب القـدماء ، ثم هو بعد ذلك يعنى — كما بين بن شـهيد أيضا — بالبديع ، ففى البيت الأول يعنى بالطباق بين النجد والغور وفيما يليه بين الليل والصبح وان لم يوفق فى هذا الطباق لأن الليل يقابله النهار ، وبين الحصباء والذهب ، ولو حاولنا متابعته قليلا فى القصيدة نفسـها نراه يقول :

وبقيت فى لجـج الأسى متضـــللا
وعدلت عن سـبل الهدى متحـيرا

كلا وقد آنست من « هـود » هدى
ولقيت «يعرب» فى القيول و «حميرا»

وأصبت فى « سـبأ » مورث ملكـه
يسبى الملـــوك ولا يدب لها الضرا

فكأنما تابعت « تبع » رافعا
ـ أعلامه ملكا يدين له الورى

و «الحارث الجفتنى» ممنوع الحمى
بالخيل والآساد مبذول القرى

وحططت رحلى بين نارى حاتم
أيام يقرى موسرا أو معسرا

ولقيت « زيد الخيل » تحت عجاجه
يكسو غلائلها الجياد الضمرا

وعقدت فى « يمن » مواثق ذمة
مشدودة الأسباب موثقة العرى

وأتيت « بحذل » وهو يرفع منبرا
للدين والدنيا ويخفض منبرا

وهذه الأبيات تدلنا بوضوح عن هوية ابن دراج الشعرية،وتكشف بجلاء المنحى الأثير عنده ، فيتضح صوته تمام الوضوح ، لتصدق آراء ابن شهيد فى منهجه الشعرى ومذهبه المزيج ، فهو يعنى بالنسب اذ يرد ممدوحه (المنصور منذر بن يحيى) الى اليمن فينسبه الى ملوكها ومشاهيرها ، وهو فى أثناء ذلك يوشى أبياته ويزخرفها بالجناس بين هود وهدى وسبأ ويسبى وتابع وتبع ، وغير هذا من صنوف التحلية اللفظية الواضحة فى الأبيات ناهيك عما فى القصيدة كلها وهى طويلة ، فهى تعد معرضا زاهيا للمقدرة اللغوية واستعراضا للثقافة ، فهو يتصنع للغريب كما يصنع للبديع والأمثال كهذا المثل المعروف «يدب له الضرا»، ولا يكتفى بذلك بل نراه يتصنع فى آخر هذه الأبيات للرفع والخفض النحويين ، وهو فى مسلكه هذا يخلط بين مذهب أبى تمام ومذهب المتنبى ، وقد قيلت هذه القصيدة نفسها على نسق المتنبى فى ابن العميد

باد هواك صبرت أم لم تصـــبرا وبكاك ان لم يجر دمعك أو جرى

هذا الاحتذاء بالمتنبى دفعه أحيانا الى الاغارة على معانيه،وليس فقط النسج على منواله فى الشكل والاطار ، ولاحظ ذلك صاحب الذخيرة فى غير موضع من شعره كهذين البيتين :

أواصل آناء الأصـــائل بالضحى
وزادى من جهـــدى وراحلتى رجلى
اذا أحفت الفرســـان غر جيـــاده
خصفت بوجهى ما تمزق من نعلى(٥١)

فقد أخذ المعنى من قول المتنبى :

لا ناقتى تقبـــل الـــرديف ولا
بالســـوط يوم الرهان أجهـــدها
شراكهـــا كورهـــا ، ومشفرها
زمامهـــا ، الشسوع مقـــودها(٥٢)

وكذلك قوله فى وصف الفرس :

وذوغرة معروفة السبق فى المدى وقد قرح التحجيل من حلق الشكل

من قصيدة أولها(٥٣) :

أفى مثلها تنبو أياديك عن مثلى ؟ وهذى الأمانى فيك جامعة الشمل

فى الوزير عيسى بن سليد ...

---

(٥١) ص ٤٠ : الديوان . تحقيق محمود على مكى .

(٥٢) ١/٦١ : الذخيرة . ابن بسام .

(٥٣) أورد ابن بسام نحو نصف هذه القصيدة فى كتابه الذخيرة القسم الأول ٦٠ ـ ١/٦٣ ، كذلك اختار منها ابن فضل الله العمرى أربعة أبيات (مسالك ٣/٢٠٢) .

فقد أخذه من قول المتنبى :

وان تكن محكمات الشكل تمنعنى ظهور جرى فلى فيهن تصهال(٥٤)

ولم يكتف ابن دراج بتقليد المتنبى ، اذ كان يشغف بتقليد غيره من المشارقة كالشريف الرضى(٥٥) ، وأبى نواس ، وقد عارض قصيدته فى مدح الخصيب :

أجارة بيتينا أبوك غيــور وميسور ما يرجى لديك عسير

بقصيدة يمدح فيها المنصور بن أبى عامر ، ويبدو أنها فى وصف احدى غزواته لنصارى شمال الأندلس ، ومطلعها(٣) :

دعى عزمات المستضام تســير فتنجد فى عرض الفلا وتغور

ومنها فى وصف وداعه لزوجه وولدها الصغير :

ولما تــدانت للوداع وقــد هفــا
بصــبرى منهــا أنة وزفــير

تناشدنى عهد المــودة والهــوى
وفى المهـد مبغوم النـــداء صغير

عيى بمرجوع الخطــاب ولفظـه
بموقــع أهواء النفــوس خبــير

تبــوأ ممنــوع القلوب ومهــدت
له أذرع محفــوفة ونحــور

فكل مفــداة الترائب مرضــع
وكل محيــاة المحاسن ظــير

---

(٥٤) ٣٦/١ : الذخيرة .

(٥٥) ٢٤٩ : الديوان . طبعة بيروت .

عصيت شفيع النفس فيه وقادنى
رواح بتدآب السرى وبكور
وطار جناح البين بى وهفت بها
جوانح من ذعر الفراق تطير

وهذه القطعة تفيض بالعواطف والشعور الحى ، وهى دليل على جودة شاعرية ابن دراج ، وانه لو ترك نفسه على سجيتها دون عناية بتقليد المذاهب المشرقية لاستطاع أن يقدم شيئا فريدا وشعرا مليئا بالحيوية والقوة والوجدان الفياض ، غير أنه كان يريد أن يثبت تفوقه ومهارته ، وهو لذلك يحاول أن يصنع شعره على صورة شعر المتنبى أو أبى تمام أو غيرهما من شعراء المشرق ، وهذه القصيدة نفسها والتى أتى فيها بهذه القطعة الممتازة نراه يختمها بهذين البيتين :

أثرنى لخطب الدهر ، والدهر معضل
وكلنى لليث الغاب وهو هصور
وقد تخفض الأسماء وهى سواكن
ويعمل فى الفعل الصحيح ضمير

وبعدهما :

وتنبو الردينيات والطول وافر
وينفذ وقع السهم وهو قصير
حنانيك فى غفران ذلة تائب
وان الذى يجزى به لغفور

ومعنى ذلك أنه كان يلتزم مذهب التحسين والتوشية فى شعره حتى فى هذه القصائد التى يحاول أن يعبر فيها تعبيرا حرا عن عواطفه، هذه الحرية التى تحدها عملية البحث عن محسن،وهذه القصيدة التى يتحدث فيها عن وداعه لزوجه وواده قد نظمها فى حيز قصيدة أبى نواس،

اذ استعار منه الوزن والقافية ، كما استعار منه كثيرا من خواطره وأفكاره .

ونقرأ له هذه القطعة من قصيدة أخرى فى منذر بن يحيى مطلعها :

أبى الله الا أن يرى يدك العليا فيبليها سعدا وتبليه سعيا(٥٦)

يقول :

علا فحوى ميراث عاد وتبع
بهمته العليا ونسبته الدنيا
فأعرب عن اقدام « يعرب » واحتبى
فلم ينس من «هود» سناء ولا هديا
ومن « حمير » رد القنا أحمر الذرى
ومن سبأ قادت كتائبه السبيا
وما نام عنه عرق «قحطان» اذ فدى
عروق السرى من غلة القحط بالسقيا
ولا أسكنت عنه « السكون » زيادة
ولا رضيت « طى » لراحته طيا
ولا كندت أسيافه ملك « كندة »
فتترك فى أركان عزته وهيا
وكائن له فى «الأوس» من حق أسوة
بنصيب الهدى جهرا أو بذل الندى خفيا

فقد ملأ هذه القطعة وقد ساعده طولها بالجناس ، اذ جانس بين يعرب وأعرب ، وينس وسناء ، وهود وهدى وحمير وأحمر وسبأ

---

(٥٦) الديوان ١٤٣ ، واختار ابن بسام من هذه القصيدة التى تبلغ اثنتين ومائة بيت ، تسعة وعشرين بيتا (انظر الذخيرة ٥٤ ـ ١/٥٦) واورد الحميدى منها أربعة أبيات الجذوة ١٠٥ .

والسبى وقحطان والقحط ، واسكنت والسكون وطى وطيا ، وكندت أى جحدت وكنـدة والأوس وأسوة ، أليست هـذه الجناسات متكلفـة ؟ ألا تحس أن لون انجناس عند ابن دراج قد أصبح شيئا ثقيـلا على الأذن واللسان ؟ غير أنه بدع جديد كان يراه الشاعر الأندلسى فى شعر المشارقة ، فيتعلق به كما يتعلق بالطباق على نحو ما نرى هذه القطعة نفسها وفيها وفى غيرها يتعلق بألوان التصنع الأخرى من ذكر الأنساب أو الألفاظ الغريبة أو الأمثـال أو النحو — وكان ابن دراج لا يكتفى بذلك اذ نراه فى شعره يعنى بالاقتباس من القرآن الكريم والحـديث الشريف كقوله فى الوزير أبى الأصبغ عيسى بن سعيد القفاع فى قصيدة مطلعهـا (٥٧) :

أفى مثلها تنبو أياديك عن مثلى ؟ وهذى الأمانى فيك جامعة الشمل

يقـــول :

أبا الاصبغ المعنى هـل أنت (مصرفى)
وهل أنت لى مغن ؟ وهل أنت لى معـك ؟
وهـــل ملك الأنعـــام والجـود عائد
باحسـان ما يولى عـلى حسن ما أبلى ؟

وقوله فى على بن حمود يمدحه حين قصده من الأندلس الى سبته سنة أربع وأربعمائة فى قصيدة مطلعها :

لعلك يا شمس عنـــد الأصـــيل
شجيت لشـجو الغريب الذليـــل
فكونى شفيعى الى ابن الشـــفيع
وكونى رسولى الى ابن الرســـول

---

(٥٧) ٣٨ الديوان ، وأورد ابن بسام نحو نصف هذه القصيدة فى كتاب الذخيرة القسم الأول ٦٠ ـ ١/٦٣ .

يقـــول :

تجزأ من جنتى مـــأرب (بخمط وأثل وسدر قليل)

وقوله فى خيران العامرى صاحب المرية فى قصيدة مطلعها :

لك الخـير قد أوفى بعهدك خيران
وبشراك قد آواك عز وسلطان(٥٨)
هو النجع لا يدعى الى الصبح شاهد
هو النور لا يبغى على الشمس برهان

يقـــول :

فتى ســيفه للدين أمن وايمـــان
ويمنـــاه للآمال روح وريحـــان
نفضت ســـيوف حـــاربته وأيمن
(وشاهت) وجوه فاخرته وتيجان

وأكبر الظن أن منهج ابن دراج قد اتضح لنا الآن ، ويكشف عن جميع صفاته وخصائصه وهو ليس منهجا جديدا ، بل هو تقليد ومحاكاة للشعر العباسى ، وهكذا ظل الشاعر فى الأندلس يتحرك فى اطار الشعر المشرقى يخـلط بين مذاهبه الفنية ، ويعنى بالغريب والانساب أحيـانا وبالأمثال والاقتباس من القرآن الكريم حينا آخر على نحو ما رأينا عند

---

(٥٨) ٧٣ الديوان : تحقيق د. محمود على مكى ، واحتفظ ابن بسام فى الذخيرة من هذه القصيدة بأربعة وستين بيتا (٧٤ ـ ١/٧٨) ، ونقل ابن الخطيب فى (اعمال الاعلام) منها واحدا وستين بيت ٢١٢ ـ ٢١٥ واختار منها الثعالبى فى (يتيمة الدهر) ثمانية وثلاثين بيتا ١٠٦ ـ ٢/١٠٧ ، واحتفظ المقرى منهـا بخمسـة أبيات نفح الطيب طالقاهرة ٤/٤٠٥ .

ابن دراج ، فهو يشفع شعره بألوان التصنيع والزخرف العباسى من جناس وطباق وتصوير ، والشعراء فى الأندلس على جملتهم يستعيرون من المذاهب الفنية للشعر العربى بدون تفريق ولا اختلاف فى التطبيق، على أنه ينبغى أن نتريث قليلا فى هذا الحكم العام على الأندلس وشعرائها حتى نرى شعرهم وما أصابه من نهضة فى عصر ملوك الطوائف •

نهضة الشعر الأندلسى :

وفى منتصف القرن الثانى الهجرى استعان العباسيون بالفرس والسريان على نقل كثير من العلوم الكونية الى اللغة العربية ، ليكون فى خدمة حضارتهم ، وقد صارت بغداد بهذا العمل الجليل مركزا لتلك العلوم الحديثة ، كما كانت البصرة والكوفة مقصد اللغويين ومحط رحالهم ، وكانت مكة والمدينة مقر العلوم الاسلامية •

وفى ذلك الحين رغب أمراء الأندلس من أمثال عبد الرحمن الداخل فى النهوض ببلادهم ، وأرادوا لها أن تكون أثبت قدما وأعلى مكانة من دولة العباسيين بالمشرق فى كل شأن من شئون الحياة •

فأوفدوا كثيرا من علمائهم الى تلك البلاد لينهلوا من معينها ويغترفوا من بحار معارفها وآدابها ، حتى اذا ما رجعوا الى بلادهم الأندلس الناشئة كانوا مصدر اشعاع لكل راغب فى فن ، أو طالب لمعرفة ، ومن أولئك الذين ضربوا فى الأرض ورحلوا طلبا للعلم يحيى بن يحيى الليثى، وكنت لهم فوق ذلك عناية تفوق كل حد فى جمع الكتب المختلفة، وحث الناس على مواصلة البحث والتحصيل والعكوف على القراءة للافادة والاستفادة ، وحسبنا أن نعلم أن مكتبة الحاكم للمستنصر كانت تضم مائتى ألف كتاب ، وما من واحد منها الا وله تعليق عليه ونظر

فيه(٥٩) ، واستدرجوا كثيرا من علماء المشرق الى بلادهم ، وأغروهم بالمال والجاه وهيئوا لهم كل أسباب الحياة ، وفى مقدمة العلماء الوافدين: أبو على القالى ، وأبو بكر محمد الزبيدى وعليهما تتلمذ كثير من علماء الأندلس ، وكان حظ الأدب من هذه النهضة عظيما ، ومبلغ العناية به وبرجاله كبيرا ، وان نهضة تتمخض عن مؤلفات أدبية من أمثال الأمالى للقالى والعقد الفريد لابن عبد ربه لخير شاهد على مدى ما وصلت اليه النهضة من رقى .

تلك نبذة عن التواصل الفكرى بين المشرق والمغرب ، فاذا نظرنا الى الأندلس فى الفترة التالية والتى بلغ فيها المشرق الذروة فى كل شىء سنجد ، أننا لا نكاد نمضى فى صدر القرن الخامس الهجرى حتى نرى الدولة الأموية التى أقام صرحها عبد الرحمن الداخل وأبناؤه تتحطم ويحل مكانها نظام جديد يقوم على حكومة كل مدينة كبيرة فى الأندلس نفسها بنفسها ، ويعرف هذا النظام باسم نظام ملوك الطوائف،اذ أصبح فى كل مدينة فرد أو أسرة تحكمها حكما منظما ، وقد اشتد التنافس بين هذه المدن ، واستطاعت الأندلس عن طريق هذا التنافس أن تظفر بأكبر حظ من النشاط العلمى والأدبى،اذ كان كل أمير أو ملك كما كانوا يسمونه يريد أن يبذ من حوله فى القوة والسلطان والثروة المادية والعقلية والفنية. وان الانسان ليحس تشابها — من بعض الوجوه — بين نظام الأندلس فى هذا العصر وبين نظام اليونان فى العصور القديمة ، اذ كانت تتنافس أثينا اسبرطة وغيرها من المدن اليونانية ، وكما أن هذا النظام اليونانى القديم يعد أزهى عصور اليونان بما تركوا فيه من آثار فنية وفلسفية وأدبية ، كذلك يعد عصر ملوك الطوائف من أزهى عصور الأندلس من الوجهة الحضارية ، واستمرت هذه الحركة الدافعة فى العصرين التاليين

---

(٥٩) ٧٧ : تاريخ الأدب العربى فى الأندلس .

عصر المرابطين والموحدين اذ استطاعت الأندلس أن تظفر بطائفة كبيرة من العلماء فى الأبحاث الدينية والأبحاث النحوية • ثم ان الولاة قد شغلوا بادىء ذى بدء بتوطيد ملكهم والقضاء على الفتن الداخلية،حتى اذا ما استقرت الأمور وهدأت الأحوال ، واتجهوا الى العناية بالعلم وذويه والأدب وعشاقه والشعر والشعراء ، تألق وازدهر ولم يقف جهد الخلفاء عند التشجيع ، بل لقد كان منهم شعراء يقرضون الشعر ويروونه ويتذوقون حلاوته ، وهم من أجل ذلك يعقدون المناظرات ويديرون الندوات ، ليستمعوا الى الشعراء ، ويفاضلوا بينهم ، وعلى مقدار تلك المفاضلة تكون المنح والعطايا ، وما أكثر الليالى التى كان الشعراء يقضونها فى اللهو والمجون والسمر دون تقييد لحريتهم ، أو حد من رغباتهم ، وكان من شعراء هذا العصر المبرزين أحمد بن شهيد ، ومحمد بن هانىء وغيرهما ، وكانت عناية ملوك الطوائف بالشعر تفوق — كما أسلفنا — عناية خلفاء بنى أمية ، حتى كان عصرهم من أزهى عصور الشعر والأدب ، وكان من شعرائه : ابن سهل وابن زيدون وابن خفاجة وغيرهم ، ولم يصب الشعر بنكسة الا فى عصور المرابطين والموحدين حينما رغبوا عن الشعر وشغلوا بأمر الملك فى بلادهم واعتبروا الأندلس ولاية تابعة للمغرب(٦٠) •

كانت نهضة الشعر فى الأندلس نهضة واسعة فى هذه العصور ، وان ظلت هذه النهضة فى حدود الصورة العامة للشعر العربى ، فلم يثر الشعراء هناك على خطوط هذه الصورة وظلالها وأضوائها ، بل ظلوا يعيدون رسمها ، لا يكلون ولا يملون ، وفى أثناء ذلك يقعون على تشبيهات واستعارات طريفة ، وقد يمتد ذلك الى مقطوعات بديعة فى الغزل وغير الغزل كقول يحيى بن بقى(٦١) :

---

(٦٠) ٧٩ : المرجع السابق

(٦١) ٢٠/٢٢ معجم الأدباء (طبعة القاهرة) ؛ ٢/٢١ المغرب لابن سعيد (دار المعارف) •

عاطيتـــه والليل يسحب ذيلـــه
صـــهباء كالمسك الفتيق لناشق
وضـــممته ضم الكمى لسـيفه
وذؤابتـــاه حمـــائل فى عـــاتقى
حتى اذا مـــالت به ســـنة الكرى
زخـــرته شـــيئا وكان معـــانقى
باعـــدته عن أضـــلع تشـــتاقه
كى لا ينام على وســـاد خـــافق

وقول ابن شطريه(٦٢) :

ســـتر الصبح بطـــرة وجـــلا الليل بغـــرة
وأرى من وجهـــه فى قده غصـــنا وزهـــرة
جاءنى كالظبى فى اشراكه اذ حـــل شـــعره
ومضى عـــنى ولـــكن بعـــدما خلف نشـــره
فتـــرانى فى افتضاح كلمـــا أخفيت ســـره

وقول أبى حفص عمر بن عمر(٦٣) :

هم نظـــروا لواحظهـــا فهـــاموا
وتشرب عقـــل شـــاربها المدام
يخـــاف النـــاس مقلتها سواها
أيذعـــر قلب حـــامله الحســـام
ســـما طـــرفى اليها وهو باك
وتحت الشمس ينســـكب الغمـــام

---

(٦٢) ١/١٤٠ : المغرب لابن سعيد .
(٦٣) انظر الأبيات فى كتاب رايات المبرزين لابن سعيد .

وأذكر قدهـــا فأنوح وجـــدا
على الاغصـــان ينتـــدب الحمـــام

وأعقب بينهـــا فى الصدر رغمـــا
اذا غـــربت ذكـــاء أتى الظـــلام

والقطع جميعا تستمد من جذاذات الشـــعر المشرقى فى المعـــانى والصور ، ولكنها تعيدها فى معارض جديدة فيها طرافة الخيال وبراعـــة التصوير ، وكانوا كثيرا ما يلمون بوصف وداع المعشوقة فى الصـــباح ولكن لا نظن أنهم يسبقون المشارقة فى ذلك ، فاننا نجد هذا الوصف عند عمر بن أبى ربيعة فى قصيدته المشهورة «أمن آل نعم أنت غاد فمبكر» نقله عنه العباسيون من أمثال أبى نواس ، وشاع عنهم فى الأندلس بين الشعراء والوشاحين والزجالين •

وربما كان أهم موضوع برع فيه الأندلسيون هو وصف الطبيعة، وقد أعانهم فيه جمال المناظر فى اقليمهم ، ولهم فيه روائع كثيرة وهى روائع كانت تستمد من كنوز الشعر العباسى مضيفة اليها أخيلة دقيقـــة كثيرة على شاكلة قول الرصافى يصف نهرا وما على جانبيه من أشجار تتراءى على صفحته ظلالها(٦٤) :

ومهـــدل الشطين تحسب انـــه
متســـايل مـــن درة لصـــفائه

فـــاءت عليه مع الهجـــيرة سرحـــة
صـــدئت لفيئتها صـــفيحة مائه

وتراه أزرق فى غـــلالة ســـندس
كالدراع اســـتلقى لظـــل لوائـــه

---

(٦٤) راجع الأبيات فى رايات المبرزين •

وقد يمزجون وصف الطبيعة بالخمر ووصف الصباح أو وصف المساء ، فنقع عندهم على صور ظريفة كهذه الصورة للرصافى أيضا اذ يقول :

وعشى رائق منظره
قد قطعناه على صرف الشمول
وكأن الشمس فى أثنائه
ألصقت بالأرض خدا للنزول
والصبا ترفع أذيال الربى
ومحيا الجو كالنهر الصقيل
حبذا منزلنا مغتبقا
حيث لا يطربنا الا الهديل
طائر شاد وغصن منثن
والدجى يشرب صهباء الأصيل

ودائما تلقانا مثل هذه الصور الطريفة فى اشعارهم ، لا فى وصف الطبيعة والغزل فحسب ، بل أيضا فى مدائحهم ومراثيهم ، كقول ابن عمار يمدح المعتضد ملك اشبيليه(٦٥) :

أندى على الأكباد من قطر الندى وألذ فى الأجفان من سنة الكرى

ومثل قول أبى عامر بن الحمارة يرثى زوجه(٦٦) :

ولما أن حللت الترب قلنا
لقد ضاءت مواقعها النجوم

---

(٦٥) ١/٣٩١ : المغرب .
(٦٦) ١/١٢٠ : المغرب .

ألا يا زهـــرة ذبـــلت سريعـــا
أضن المزن أم ركـــد النســيم

واشـــتهر بمراثيهم للدول الزائلـــة ، ومراثى ابن اللبـــانة فى بنى عباد مشهورة ، وكذلك مراثى ابن عبدون فى بنى الأفطس أصحاب بطليوس ، ومن بديع قوله فيها هذا المطلع الرائع لاحداها :

ما لليـــالى أقال الله عثرتنـــا من الليـــالى وخانتها يد الغير
تسر بالشيء لكن كى تغـــربه كالأيم ثار الى الجانى من الزهر

ولم تسقط مدينة فى يد مسيحى الشمال الا بكوها وتفجعوا عليها ، تفجعا حارا ، وهو تفجع كانوا يضمنونه استصراخا فيستنجدون بملوك الاسلام والمسلمين المعاصرين لهم ، كمـا يستنجدون برســول الله — صلى الله عليه وسلم — وبالأولياء الصالحين كذلك ، وهيهات ان يستمع أحد لصيحتهم ، أو يخف لنجدتهم ، ويعد هذان من أصدق الأغراض ، لأنه صادر عن عاطفة صـادقة حزينة ، يقول ابن اللبانة فى رثاء دولـة بنى عباد :

تبكى الســماء بمزن رائح غـــادى
على البهــاليل من أبناء عبـــاد
على الجبـــال التى هـــدت قواعدها
وكانت الأرض منهم ذات أوتـــاد
يا ضيف أقفر بيت المكرمات فخذ
فى ضـم رحلك وأجمع فضله الزاد
ويا مؤمـــل واديـهم ليســكنه
خف القطين وجـف الزرع بالوادى
وأنت يا فارس الخيـــل التى جعلت
تختـــال فى عـدد منهم واعـداد

الق السلاح وخل المشرفى فقد
أصبحت فى لهوات الضيغم العادى
أن يخلعوا فبنوا العباس قد خلعوا
وقد خلت قبل حمص أرض بغداد
حان الوداع فضجت كل صارخة
وصارخ من مفداة ومن فادى

وكانت هذه الصرخات العالية ترسل عليهم يستنقذون تلك المدن من براثن الأسبان ، ويعيدونها الى حظيرة الاسلام ، قبل أن تدك هناك كل صروحه وتسقط كل راياته وأعلامه ، يقول الرندى أبو البقاء صالح ابن شريف (٦٩٨م) فى قصيدة طويلة يرثى فيها دويلات الأندلس :

لكل شىء اذا ما تم نقصان
فلا يغر بطيب العيش انسان
هى الأمور كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته أزمان
تبكى الحنيفية البيضاء من أسف
كما بكى لفراق الالف هيمان
على ديار من الاسلام خالية
قد اقفرت ولها بالكفر عمران
أعندكم نبأ من أهل أندلس
فقد مضى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بها المستضعفون وهم
قتلى وأسرى فما يهتز انسان
ألا نفوس أبيات لها همم
أما على الخير أنصار وأعوان

وبعد أن يستصرخ ، ويخاطب النخوة والعواطف ، ويوضح ما آلت اليه الأحوال فى الأندلس ، يبين كيف انقلبت الأوضاع وتحول العز الى ذل والقوة الى ضعف ومسكنة ، ثم يجسد تلك الاحداث المرهيبة التى صار فيها المسلم رخيصا تحوطه المصائب والأهوال من كل جانب، يتقلب فى المكاره ولا نصير .

يا من لذلة قوم بعد عزهم
أمال حالهم كفر وطغيان
يا رب أم وطفل حيل بينهما
كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس اذ طلعت
كأنما هى ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة
والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد
ان كان فى القلب اسلام وايمان

ومن غير شك نهض الشعر العربى فى هذا الفردوس المفقود نهضة رائعة ، حيث انه من الواضح أن الشعر عند الأندلسيين يمتاز عنه عند المشارقة من جهات أربع هى :

١ — ناحية الاسلوب : فان الشعر الأندلسى رقيق عذب عربى النسج خال من عجمة تشينه أو غرابة وتعقيد يزريان به ، ويحطان من قدره ، وذلك لأن الملوك قد عنوا بلغتهم العربية ، قصد منافستهم للمشارقة فى كل شىء ورغبتهم الأكيدة فى غلبتهم والتفوق عليها ، مما كان سببا باعثا على النهضة العلمية والأدبية ، وقد كان من آثار العناية باللغة العربية . والتعصب لها والعمل على ذيوعها وانتشارها ، انها أصبحت لسان أهل الأندلس جميا ، سواء فى ذلك العربى وغيره،ولو اننا

فتشنا عن انسان يقطن الأندلس ، ويتكلم بغير لسان العرب لعز علينا العثور عليه ، ولا غرو فالمسيحيون أنفسهم قد نسوا لغتهم اللاتينية ، مما اضطر القسس الى ترجمة كتب الكنيسة الى اللغة العربية ، وظل الحال كذلك الى أواخر القرن الحادى عشر(٦٧) ، كما امتاز الشعر الأندلسى فى ناحية الأغراض حيث زادوا عن المشارقة فى أمور أهمها : الوصف والمجون ، ونظم العلوم •

وابتكروا الموضوع الذى أشرنا اليه سابقا وهو رثاء الممالك الزائلة والاستنجاد (وله شبيهة بالمشرق الا أنه لم يستقل كموضوع قائم بذاته) لكن الأندلسيين من ناحية المعنى قصروا عن المشارقة تقصيرا ملحوظا ، فقد خلا شعرهم من عمق الفكرة نتيجة الحياة السهلة الهينة التى عاشوها ، كما عرف فى شعرهم عدم الغور والابتكار والتجديد ، وان كانت لهم أحيانا أخيلة ذهنية وتلاعب بالمعانى ، وزيادات عليها وعلى ترتيبها ، وطريقة خاصة فى صياغتها ، حتى انهم لما وقفوا على شعر المتنبى لم يقلدوه فى قوة معانيه وبديع حكمته ، وقوة شاعريته وثورة نفسه ، انما أخذوا منه أسلوبه وعمق خيالاته • والجهة التى ميزت شعر الأندلسيين انما هى الوزن والقافية ، فلقد كان لهم فضل ابتكار الفنين الجديدين المعروفين بالموشحات والزجل ، وقد يكون الباعث عليهما مسايرة فن الغناء التى تعددت أنغامه ، وتنوعت ألحانه ، واقتضتها الحضارة الجديدة ، ولو استطاع الأندلسيون أن يوفقوا بين النغم الجديد والوزن القديم بما يشبع نهم الآذان الأندلسية الى طرب الغناء لما ابتكروا ولا اخترعوا ، وقديما قال العربى : « الحاجة تفتق الحيلة »(٦٨) •

---

(٦٧) راجع تاريخ الأدب العربى فى الأندلس • د. الخشب •

(٦٨) المرجع السابق •

على أنه ينبغى أن لا نبالغ فى تصور هذه النهضة ، اذ كان الأندلسيون يولون وجوههم دائما نحو المشرق ، يقلدون شعراءه فى مذاهبهم ونماذجهم ، ولعله من أجل ذلك شاعت عندهم فكرة معارضة قصائد المشارقة ، فابن برد الأصغر ينظم قصيدته :

بخداع عللوه وبهجر وصلوه

على نمط قصيدة لشاعر من شعراء بغداد فى وزنها ورويها(٦٩) ، وابن زيدون ينظم قصيدته المشهورة .

أضحى التنائى بديلا عن تدانينا وناب عن طيب لقيانا أمانينا

على نمط قصيدة البحترى :

يكاد عاذلنا فى الحب يغرينا فما لجاجك فى عذل المحبينا

وابن خفاجة ينظم قصيدته :

كفانى شكوى أنا أرى المجد شاكيا وحسب الرزايا أن ترانى باكيا

على نمط قصيدة المتنبى :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وهو كذلك ينظم قصيدته :

قل لمسرى الريح من اضم وليالينا بذى سلم

على نمط قصيدة أبى نواس ، ان صح انها له :

يا شقيق النفس من حكم نمت عن ليلى ولم أنم

---

(٦٩) ٢/٤٣ الذخيرة : ابن بسام .

وعلى هذه الشاكلة يصوغ الشعراء قصائدهم متخذين صورة القصيدة العباسية نموذجا يحتذى ، وهى صورة لا تقف عند المشابهة فى الوزن والروى ، بل تمتد الى المشابهة فى المعانى والأساليب ، وكأنما القصيدة فى رأيهم ليست الا تلفيقا للمواد الفنية التى تركها العباسيون، مما جعلهم يبدئون ويعيدون ويرددون المعانى والصور الموروثة دون أن يضيفوا اليها جديدا الا قليلا ، فالقصيدة الأندلسية مواد وعناصر تتراكم وتتجمع ، لكنها لا تحدث عملا فنيا متميزا الا فى الندرة ، لأن الكثرة منها تصنع تحت تأثير المواد العتيقة ، ولقد كان حريا بالشعراء أن ينحوا عن شعرهم كل ما هو عتيق ، غير أن التفكير الفنى عند العرب كان فى المشرق أيام العباسيين قد بلغ ذروته فجدد وابتكر ، بينما فقد هذا الابتكار والتجديد عند الأندلسيين ، فلم يستطيعوا أن يتجهوا بشعرهم الى وجهات جديدة ، سوى ما رأيناه عندهم من الموشحات والأزجال ، والتى لا يقصدون بنظمها المثقفين وحدهم بل يقصدون بهما الشعب كله عالمه وعاميه ، ومع العلة التى ذكرناها من قبل كسبب فى اختراع هذين الضربين فان البحث لايزال مستمرا فى علة ذلك وسبب ظهوره (٧٠)، وهل كان اختراعه عربيا بحتا أو متأثرا بآداب أخرى مجاورة ، وعلى كل حال فان الموشحات تمتاز بطابع مخصوص من الأوزان والتقاطيع غير الأنواع المألوفة فى الشعر القديم ، وقد عقد ابن خلدون فصلا دقيقا فى مقدمته فى الشعر تعرض فيه للموشحات والأزجال نلخص ما قاله : « انهم فى الموشحات ينظمونها أسماطا وأغصانا أغصانا ، وينسبون فيها ويمدحون ، كما يفعل فى القصائد ، وقد استظرفها الناس وجملة الخاصة والكافة لسهولة تناولها وقرب طريقها ، وكان المخترع لها فى جزيرة الأندلس مقدم بن معافر من شعراء الأمير عبدالله بن محمد ، وأخذ عنه ذلك

---

(٧٠) يراجع كتاب فى الأدب المقارن للباحث .

ابن عبد ربه ، ثم برع فى هذا الشأن بعدهما عبادة القزاز شاعر المعتصم ابن ممادح ، ثم جاءت الحلبة التى كانت فى أيام الملثمين فظهرت لهم البدائع ، وقد انتقل فن الموشحات والأزجال من الأندلس الى سائر البلاد الشرقية ، وكل نظمه بلغته لاختلاف اللغات الدارجة فى الأمصار، وموشحة لسان الدين الخطيب اشهر من نار على علم :

جادك الغيث اذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس

أما بعد ذلك فالشعر الأندلسى باق على قديمه العربى ، سوى ما كان من تجديداته فى أوزان الموشحات والأزجال ، فأساليبهم وصورهم هى الأساليب نفسها عند المشرقيين وصورهم ، فلم تكن عند الأندلسيين رغبة فى تغيير صياغة الشعر تغييرا تاما ، بحيث تدفع بالشعراء الى احداث مذهب جديد ، انما نظموا فى الاطار المشرقى العام ، وفيما تضمن من مذاهب الصنعة والتصنيع ، يخلطون بينها فى غير نظام ولا نسق معين على نحو ما رأينا عند ابن هانىء وابن دراج ونتبعهما بنفر من شعراء هذا العصر لنتعرف من خلالهم أكثر على أسلوب القصيد ، ولتتضح معالم الصورة التقليدية للمشارقة .

ابن برد الأصغر :

هو أبو حفص أحمد الأصغر حفيد ابن برد الأكبر الذى كان وزيرا فى الأيام العامرية ، وكان كاتبا بليغا أيضا(٧١) ، حدث الحميدى أنه رآه فى المرية بعد الأربعين وأربعمائة غير مرة(٧٢) .

وأشاد به صاحب الذخيرة اذ يقول : « كان أبو حفص بن برد

---

(٧١) انظر ترجمته فى المغرب ١/٨٦ ، وبغية الملتمس للضبى ص ١٥٣ والمطمع للفتح ص٢٤ والذخيرة ٢/١٨ ، ومعجم الأدباء ٢/١٠٦ .

(٧٢) ٢/١٠٦ : معجم الأدباء . ياقوت .

الأصغر فى وقته ملك البلاغة الدائر ومثلها السائر ، نفث فيها بسحره، وأقام من أودها بناصع نظمه ، وبارع نثره ، وله اليها طروق،وفى عروقها الصالحة عروق » ، ومن يرجع الى القطعة التى رواها له صاحب الذخيرة من شعره ، وهى قطعة كبيرة يراه يحتذى دائما على مثال العباسيين،بل انه ليبلغ من ذلك مبلغا لا يكاد يدور بخلد انسان ، فقلما يوجد له معنى الا وهو مسبوق به ، قد طرقه الشعراء من قبله ، ولاحظ عليه ذلك صاحب الذخيرة فىغيرموضع من روايته لشعره ، فمن ذلك قوله فى النسيب :

لما بدا فى لازوردى الحرير وقد بهر
كبرت من فرط الجما ل وقلت ما هذا بشر

وهو من قول ابن الرومى :

يا ثوبه الأزرق الذى قد فاق العراقى فى السناء
كأنه فيه بدر تم يشق فى زرقة السماء

وقول ابن المعتز أيضا :

وبنفسجى الثوب قتل محبة من دابة
الآن صرت البدر حين لبست ثوب سحابة

ونستمر فى قراءة ابن برد يقول :

بأبى أنت وأمى لم تطبعت بظلمى
أبدا تأتى بعتب دون أن آتى بجرم
بيننا فى الحب قربى سقم عينيك وجسمى

وهو من قول ابن الرومى :

يا عليلا جعل العلـ ـة مفتاحا لسقمى
ليس فى الأرض غليل غير جفنيك وجسمى

وهو كما يتأثر بابن الرومى نراه يتأثر بابن المعتز ، بل ربما كان تأثره بابن المعتز أوضح وأكثر ، فقد تعلق مثله بالأوصاف والتشبيهات، فمن ذلك قوله :

عارض أقبل فى جنح الدجى يتهادى كتهادى ذى الوجى
اتلفت ريح الصبا لؤلؤة فانحنى يوقد عنه السرجا

وقوله :

وكأن الليل حين لوى هاربا الصبح قد لاحا
كله سوداء حرقها عامد أسرج مصباحا

فان ذلك كله من قول ابن المعتز :

والصبح يتلو المشترى فكأنه عريان يمشى فى الدجى بسراج

ويقول ابن برد فى وصف كلف البدر :

والبدر كالمرآة غير صقلها عبث العذارى فيه بالأنفاس
والليل ملتبس بضوء صباحه مثل التباس النفس بالقرطاس

وهو واضح الصلة بقول ابن المعتز فى وصف فرند السيف :

جرى فوق متنيه الفرند كأنما تنفس فيه القين وهو صقيل

وعلى هذا النمط نرى ابن برد يمضى فى تأليف شعره ، متأثرا بشعراء المشرق ، وعز عليه أن يترك لسجيته الشعرية القياد لينطلق ، وانما ظل أسير المحاكاة يدور فى اطار شعراء القدوة وخاصة ابن المعتز وابن الرومى .

وهناك فكرة شائعة عن الأندلس فحواها أن لها شخصية واضحة فى تاريخ الشعر العربى ، والواقع — فى زعمنا — أن هذه الشخصية تنحصر فى كثرة الانتاج وخاصة فى شعر الطبيعة ، أما بعد ذلك فالأندلس

تستعير من المشرق موضوعات شعرها ومعانيه ، وصوره وأساليبه ، وكل ما يتصل به استعارة تكاد تكون مطابقة،على نحو ما نرى الآن عند ابن برد مع قلة النماذج التى استشهدنا بها ، فقد استقر فى أذهان الشعراء ان خير عصور الشعر وأزهاها هو العصر العباسى ، ذلك العصر الذى خلد ذكره واقترن ازدهاره بأسماء شعراء كبار أمثال أبى نواس وأبى تمام والبحترى ، وابن الرومى وابن المعتز والمتنبى ، فذهبوا يقرأون هؤلاء الشعراء وأمثالهم ، ثم أخذوا يحاكونهم دون ايثار شاعر معين ، ودون تفريق بين مذاهب الشعر هناك ، وكأن الأندلسيين انتهوا الى التقليد وارتضوه لأنفسهم ، فعاشوا فى الشعر العربى المشرقى ليستغرقهم التقليد الذى نرى آثاره عند ابن برد وغيره •

ابن زيدون :

لعله يحسن بنا أن نقف عند ابن زيدون(٧٣) وقفة متأنية ننظر من خلاله الى حقيقة الحكم العام الذى نحكم به على شعراء الأندلس، وكان حامل لواء الشعر فى عصره،وهو من أسرة اشتهرت بالفقه،ونعمت بالثراء • ولد بقرطبة سنة ٣٩٤ للهجرة ، واهتم أبوه منذ نعومة أظفاره فأحضر له الأدباء المعلمين والفقهاء والمثقفين ، ولم تلبث ملكته الشعرية أن تفجرت على لسانه ينبوعا عذبا ، فعلا شأنه ولمع نجمه •

وليس بين أيدينا أخبار واضحة عن موقفه فى حوادث سقوط الدولة الأموية ، وان كنا نظن انه لم يقف مكتوف اليدين ازاءها ، بل لعله كان أحد من أعانوا على قيام دولة بنى جهور واعتلاء أبى الحزم عرش قرطبة سنة ٤٢٦ ، ونراه غارقا فى حب ولادة بنت الخليفة

---

(٧٣) ١/١٨٩ الذخيرة ، ٧٠ القلائد للفتح بن خاقان ، ١/٦٣ المغرب فى حلى المغرب ، ٧٤ المعجب لملمراكشى ، ٤٥ الحلة السيراء لابن الأبار.

المستكفى ، وكان ابن عبدوس ينافسه فى هذا الحب ، ويظهر أنه كان أحد من وشى به الى أبى الحزم ، اذ نسبت اليه مؤامرة ضده للعودة بزمام الأمور الى بنى أمية ، فأودع السجن سنوات طوالا . وهو يضرع الى أبى الحزم بشعره ورسائله الجدية ، واستشفع بابنه أبى الوليد، ولكنه لم يعف عنه فهرب من السجن ليلة عيد،وأخيرا عفا عنه أبو الحزم، وقربه أبو الوليد منه ، حتى اذا توفى أبوه وولى مكانه عينه للنظر على أهل الذمة ، ثم رفعه الى مرتبة الوزارة ، وسفر بينه وبين كثير من ملوك الأندلسية .

وفسدت الأمور بينه وبين أبى الوليد كما فسدت بينه قبلا وبين أبيه ، فولى وجهه نحو اشبيلية ، واستقبله ملكها المعتضد استقبالا حافلا ، واتخذه وزيرا له ، كما اتخذه من بعده ابنه المعتمد وزيره ومستشاره ، واستطاع بفضل جهوده أن يغزو قرطبة ويستولى عليها وهذه الفترة التى نشأ فيها ابن زيدون كانت فترة انتقال من حكم الى حكم ، أو هى فترة عمت فيها فوضى السياسة بانتثار عقد بنى أمية ، وذهاب ريحهم ، وقيام هؤلاء الأمراء والقواد فى نواحى البلاد يستبد أحدهم بما يستطيع الاستبداد به من البلاد ، فيجاس على عرشها،ثم ما يلبث أن يغلبه على ملكه غالب ، والشعب الأندلسى اذ ذاك ثائر الخواطر ، فكل اقليم اذا غضب أهله على أميرهم قاموا فانتزعوه من الحكم وقتلوه أو نفوه ، أو فر من أيديهم ، ورفعوا الى مكانه من اقتنعوا بفضل شجاعته .

واطمأنوا الى صلاحيته ، وعلى حسب ما يكون للأمير من شيعة وعصبية يكون توطد ملكه وثبات عرشه . ذلك عهد ملوك الطوائف الذى شهد ابن زيدون أوائل أيامه،فكان لما رأى من قيام الممالك،وثل العروش أثر فى نفسه استحكمت به تجاربه ، وعظم دهاؤه ، وقويت حيلته ؛ حتى اشتهر بجانب أدبه بتلك الخصال ، وهى مزايا تكبر فى نظر المتغلبين

إذ ذاك من الملوك ليستعينوا بصاحبها على تدبير أمرهم ، ورد غـائلة أعدائهم(٧٤) • وكان من اللازم الحسم عظم مكانة ابن زيدون عند أميره المعتمد ، وحدث أن أرسل به الى اشبيليه فى بعض المهم فدعاه القـدر هناك الى جوار ربه سنة ٩٦٣ للهجرة ، وقيـل : « قد تم للحسـاد ما أرادوا حين وشوا به عند ابن جهور فتغير قلبه على ابن زيدون فسجنه وكان سجنه من مثارات أدبه ، وأخذ يستشفع الى ابن جهور حتى رضى عنه فعاد الى الظهور بقرطبة ، وبقى حتى مات أبو الحزم فاسـتوزره ابنه الوليد ثم خاف ابن زيدون من تغيره عليه بفعل الوشاة فعول على الخروج الى اشبيلية حيث ينتظر أحد المعجبين بفضله النافسين على آل جهور اختصاصهم به ، ذلك هو المعتضـد بن عباد صاحب اشبيلية ، فهاجر ابن زيدون اليها سنة ٤٤١هـ ، فأكرم المعتضد مثواه فكان وزيره المدبر لأموره حتى مات سنة ٤٩٣هـ(٧٥) •

ونلاحظ بين الروايتين تضاربا ، وان اتفقتا فى تاريخ الوفاة،وقد وردت رواية خاطئة عن تاريخ ولادته فى كتاب « تاريخ الأدب العربى فى الأندلس » حيث ذكر مؤلفه ان ابن زيدون « ولد بقرطبة عام ثلاثمائة فى آخر عهد الأمويين بالحكم »(٧٦) ولم ترد هـذه الرواية فى أى من المراجع التى ذكرنا من قبل •

والحقيقة أن ابن زيدون كان له شأن عظيم من ناحية أدبه وحنكته السياسية فحرص أبو الحزم ابن جهور المتغلب على قرطبة أن يكون ابن زيدون عونه فى ملكه ، فأدناه منه ، ومازال يعظم فى نظـره حتى صيره وزيره ومنحه لقب « ذى الوزارتين » ، وهو لقب للوزير الذى

---

(٧٤) ٢٩٨ : تاريخ الأدب العربى فى الأندلس ابراهيم أبو الخشب
(٧٥) ٢٩٩ : المرجع السابق •
(٧٦) ٢٩٤ : المرجع السابق •

يعمل مع الملك فى تدبير الملك ويتولى عنه بعض الشئون من جيش أو جباية ، فيكون تصرفه فى أمور الرعية بالقول والعمل ومن شأن هذا الوزير الاتصال بالأقاليم الأخرى والسفارة عن ملكه عندهم ، وقد اتصل ابن زيدون بهؤلاء فتجاوزت شهرته قرطبة وحل من رأى الملوك الأخرين محل التجلة والاحترام فخوطب فى الميل عن صاحبه اليهم ولكنه كان وفيا ، فأبى الا البقاء على عهد صاحبه .

ومع تلك العوامل السياسية التى شكلت حياة وأدب ابن زيدون كانت هناك عوامل أخرى تخرج عن دائرة السياسة وتدخل فى محيط حياته الخاصة ، كتلك الخصومة التى كانت بينه وبين ابن عبدوس،والتى لم ترجع الى أسباب سياسية ، وانما كانت ترجع الى حبه لولادة بنت المستكفى ، فقد كان يحبها كذلك ابن عبدوس الوزير أبو عامر ، وكان كبير الحول والطول ، فتقرب الى ولادة حتى أمالها اليه ، واغتصبها من صديقها .

وكانت ولادة ملت صداقة ابن زيدون ، واتهمته بعدم الاخلاص لها ، كما اتهمها بذلك أيضا ، فهبت عاصفة من الجفاء بينهما ، وحالت بين قلبيما ، لذلك غلب ابن زيدون على أمره ، ثم حدث أن رجعت لابن زيدون فكتب على لسانها لابن عبدوس رسالته الهزلية ، ثم استأثر بها ثانيا ابن عبدوس فكانت هذه الحال سبب اضطراب فى حياة ابن زيدون العقلية والسياسية ، وهذه الحادثة من أكبر الحوادث فى حياة ابن زيدون . التى كانت من الوجهة الأدبية حياة طريفة ، فقد تعلق بولادة وأصبح مغرما بها صبا ، وكانت لولادة بنت المستكفى — الخليفة الأموى — شهرة عظيمة فى قرطبة لجمالها وعلمها وأدبها ، كما كان للنساء أثر عظيم فى مجالس الأدب ، فاتجه الناس الى الاندماج فيها ، واستعذبوا هذا المورد ، وانصرفت همم الأدباء الى التفوق فى هذا الميدان ، فكان لذلك أثر عظيم فى أخلاق الأدباء ، وصور البلاغة من

نظم ونثر ، وكأنما ضاعت كل صيغة جديدة فى المجاميع الأدبية ، فجرؤ الوزراء على المجاهرة بالمجون • وسيرا على هذه الوتيرة كان لولادة منتدى لطيف تجلس فيه للرجال والشعراء ، ويظهر أنها كانت ماجنة خليعة ، يقول صاحب الذخيرة : « انها أوجدت الى القول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها كتبت ــ فيما زعموا ــ على أحد عاتقى ثوبها :

أنا والله أصلح للمعالى وأمشى مشيتى وأتيه تيها

وكتبت على الآخر :

أمكن عاشقى من صحن خدى وأعطى قبلتى من يشتهيها(٧٧)

وهناك نص طويل يرويه صاحب الذخيرة عن ابن زيدون يصف فيه احدى وقائعه الغرامية معها ذات ليلة(٧٨) ، ومن يرجع الى مجموع ما روى عن حياة ولادة فى الذخيرة ونفح الطيب ، ثم يرجع مع ذلك الى ما روى فى نفح الطيب عن غيرها من حرائر الأندلس(٧٩) ، يحس أن المرأة الأندلسية الحرة لعبت فى الأدب الأندلسى دورا يشبه من بعض الوجوه دور المرأة فى الأدب الفرنسى فى أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وليس من شك فى أن هذه الناحية تعطى ديوان ابن زيدون أهمية فى تاريخ الشعر الأندلسى ، حيث ان صلته بولادة التى عرفنا مكانتها فى المجتمع ، وذوقها فى النقد وكفايتها فى الأدب ، ومنزلتها فى الشعر ، وحفظها من الجمال ، من أقوى الأسباب التى رفعت حسه ، وهذبت رأيه ، وقومت طبعه ، وأيقظت وجدانه ، ولم يحظ ابن زيدون بتلك المكانة عند ولادة الا لكفاية فيه استعداد له وتفوق لديه(٨٠) •

---

(٧٧) ١/٣٧٦ الذخيرة •

(٧٨) ١/٣٧٧ الذخيرة •

(٧٩) ١٠٧٦ ــ ٢/١١٧٣ نفح الطيب (طبع بولاق) •

(٨٠) ٣٠٣ : تاريخ الأدب العربى فى الأندلس •

على أنه ينبغى أن نعرف أن حبه لولادة اصطدم بأشياء ، اذ نراها تؤثر ابن عبدوس عليه ، ثم يفرق السجن بينهما ولا يستطيع أن يجد سبيلا الى لقائها،ثم يكون الحرمان منها بخروجه عن قرطبة الى اشبيلية، ولون ذلك شعره بألوان من الصبابة بها واللوعة ، فرأيناه يصف أيامه معها ، كما يصف المعاهد التى كانا يتفرجان عليها أو يتنزهان فيها،ومعنى ذلك أن شعره يفيض بالعواطف ويكتظ بالشعور ، ولعله من أجل ذلك كان يسميه النقاد باسم بحترى الأندلس ، فذوقه أقرب الى ذوق البحترى ، اذ يطلب فى شعره التعبير عن خواطره فى حرية دون تقييد بضروب التصنيع أو التصنع ، غير أنه ينبغى أن نقيد هذا الكلام ، لأن من يتتبع ابن زيدون فى ديوانه يجده كبقية الشعراء الأندلسيين يخلط بين مذاهب العباسيين فى غير طريقة مرسومة ولا خطة موضوعة .

ففى قصيدته (أضحى التنائى) نراه يسير على نمط قصيدة للبحترى ، وقد علق الدكتور جودت الركابى على هذه القصيدة فقال : « جاء فى الديوان ان ابن زيدون كتب هذه القصيدة الفذة يتحسر فيها على انقضاء أيام الوصال ، ويشكو ما يحسه من الوجد المبرح ، والألم القاسى ، وقد بعث الى حبيبته ولادة ، يستعطفها ويتلهف على أيام الوصال السابقة ، وقد نظم الشاعر هذه القصيدة فى الفترة التى تلت فراره من السجن الى اشبيلية للمرة الأولى ، ولا جدل فى أن هذه القصيدة قد جمعت بين أفانين شتى من الاجادة وعبرت عن عاطفة الشاعر الصادقة ، ونالت من الشهرة ما جعل كثيرين من الشعراء يعارضونها ، وقد قال عنها الفتح بن خاقان فى قلائد العقيان : أنها قصيدة ضربت فى الابداع بسهم ، وطلعت فى كل خاطر ووهم ، ونزعت منزعا قصر عنه حبيب وابن جهم .

أن الميزة التى تبدو فى أسلوب ابن زيدون هى :«الفن»فهو شاعر فنى ، قبل أن يكون حكيما أو فيلسوفا ، أو غواصا على المعانى

أو وصافا ، وهذه الخصائص الفنية تتجلى على أصدق صورة فى هذه القصيدة ، فألفاظها حلوة عذبة تتلقفها الأذن فى لين ويسر ، وتحدث فى النفس فى تأليفها وتنسيقها تناغما وجرسا يعكس عاطفة للشاعر ، ويعبر عنها خير تعبير ، ونرى ، أن أكثر الكلمات تتساند أو يستدعى بعضها بعضا ، ولئن كان الشاعر يلجأ الى الطباق فى العاطفة فانه يلجأ اليه فى اللفظ أيضا ، لذلك رأينا هذه المزاوجة فى المعانى والألفاظ ، وعلى هذه المزاوجة والمقابلة يقوم كثير من جمال هذه القصيدة ، ويكثر الشاعر من الألفاظ والأوزان التى تدل على المشاركة ليبين أن العاطفة فى تجارب مستمر ، فلا انفصام وانما رجفة متصلة ، بين ما من حبيب ، وحاضر مؤلم ، ومما يزيد فى هذه الرجفة طولا هو هذه القافية الممدودة ، وهذه النونات الطويلة التى تضيف الى جرس القطعة أنينا موسيقيا حزينا(٨١) .

وهو فى قصيدته هذه لايزال يعيش هذه المعيشة التقليدية « فأكثر معانى القصيدة ينظر الى معاني الشرقيين ، ويدل على تعلق الأندلسيين بالمشرق ، على أن معانى الغزل لم تتحرر من التقليد فى الشرق والغرب، وما فتىء الشاعر يصف لنا ذل الغرام ، وقساوة المحبوبة ، غير أن واقعية التجربة الغرامية التى عاشها ابن زيدون سترت عنه الكثير من العيوب ، وجعلت القصيدة تستقى وحيها من نبضات قلب الشاعر،وقد استطاع أن يؤلف بين هذه النبضات وبين الفن » .

ونقرأ له هذه القطعة المشهورة :

ما على ظنى باس   يجرح الدهر ويأسو
ربما شرف بالمر   ء على الآمال ياس
ولقد ينجيك اغفا   ل ويرديك احتراس

---

(٨١) ٣٠٧ : تاريخ الأدب العربى فى الأندلس .

والمحـــاذير ســـهام والمقـــادير قيـــاس
يا أبا حفص وما ســـا واك فى فهم ايـــاس
من ســـنا رأيك لى فى ظلم الخطب اقتبـــاس
ووادى لـــك نـــص لم يخـــالفه القيـــاس

فنراه يصنع اذ يطابق بين يجرح ويأســـو ، كما يجانس يأسو فى البيت الأول وياس فى البيت الثانى ، وهو كذلك يتصنع لذكـــر النص والقياس والاقتباس ، فحتى النموذج الواحد فيه خـــلط بين المذاهب ، فالشاعر تارة يصنع وتارة يتصنع ، ومع ذلك فهذه القطعة قريبـــة من ذوق الصانعين مما اشتملت عليه من حسن جرس وايقاع .

واذا تركنا هذا المظهر العام فى شعره من الخلط بين المذاهب الفنية العباسية ، الى تتبع معانيه وأخيلته وأساليبه وجدنا صورتها العامة ، هى الصورة العباسية ، وقد عنى صاحب الذخيرة ببيان هذا الجانب فى شعره ، يرجع عشرات من أبياته وأشعاره الى دواوين العباسيين وخاصة البحترى وأبو تمام والمتنبى والمعرى فمن ذلك قوله فى وصف سواد ليلة:

يا ليت ذاك السواد الجون متصل قد استعار سواد القلب والبصر

فقد استعاره من قول أبى العلاء :

يود أن ظلال الليل دام لـــه زيد فيه سواد القلب والبصرا(٨٢)

ويقول ابن زيدون فى بنى جهور :

بنى جهور أحرقتم بجفـــائكم جنـــانى فما بال المدائح تعبق
تعدونتى كالعنبر الورد انمـــا تطيب لكم أنفاسه حين يحرق

---

(٨٢) ١/٣٢٦ : الذخيرة .

وهو بين الصلة بقول أبى تمام :

لولا اشتعال النار فيما جـــاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وكذلك قــوله :

هرمت وما للشيب وخط بمفرقى ولكن لشيب الهم فى كبدى وخط

واضح الصلة بقول المتنبى :

ألا يشيب فقد شابت له كبــد شيبا اذا خضبته سلوة نصــلا

وكذلك قوله فى المديح :

وصلنا فقبلنا الندى منك فى يد بها يتلف المال الجسيم ويخلف

مأخوذ من قول البحترى :

دنوت فقلبت الندى من يد امرىء كريم محيــاه سباط أنامله

يقول صاحب الذخــيرة : « وبيت ابن زيدون لفظا بيت البحتــرى ومعناه،ويقول بعض أدبائنا أن ابن زيدون بحترى زماننا وصدقوا»(٨٣) .

وهو فى الواقع يشبه الى حد بعيد صوت البحترى ، وان كان يمزج بين عدة توجهات ، فيتتبع غيره ، ويحتذى عــلى أمثلتهم فى أفكــاره ومعانيه كقوله فى المديح :

ومحاسن تتدى رقائق ذكرها فتكاد توهمك المديح نسيبا

فانه يسير مسرى أبى تمام فى قوله :

طاب فيه المديح والتذ حتى فاق وصف الديار والتشبيب

---

(٨٣) ١/٢٩٩: السابق.

وكذلك قــوله :

ان السيوف اذا ما طاب جوهرها فى أول الطبع لــم يعلق بها الطبع

من قول أبى تمام :

والسيف ما لم يلف فيه صيقل من سنخه لم ينتفع بصقال

وهكذا نرى أن المتابع لشعر ابن زيدون ، يحس بأن هذا الشــعر يوشك أن يسقط من ديوانه ، فيرتد الى أمكنتــه من شعر العبــاسيين لشدة تعلقه بمحاكاتهم والاغتراف من وردهم ، وهذه ــ كما سبق ــ صفة غالبة على كثير من شــعراء الأندلس وربما شخصية ابن زيدون أكثر بروزاً فى فتياته من غيره فى أشعارهم . ولعل هذا ما جعل صاحب الذخيرة يقول : « وأبو الوليد بن زيدون على كثير احسانه كثير الاهتدام فى الانثار والنظام »(٨٤) .

وقد اتضح الآن صوت ابن زيدون فهو مع ما يبدو عليه من صفاء وعذوبة صوت ، الا أن هذه الصفات يشوبها صدى أصوات العباسيين، وهو صدى لا يطرد على نسق واحد ، لأن الشاعر لا يختار له نســقا معينا يعيش فيه، بل هو متأثر بكل نسق يقرؤه، فتارة يعيش فى جو البحترى أبى تمام أو المتنبى أو أبى العلاء من غير تفريق بين هؤلاء الشــعراء ، ولكل طريقته واسلوبه فى ابداعاته ومذهبه الخاص به ، وهذا معنى ما نقوله من أن الشاعر الأندلسى مايزال فى شعره يمزج بين جميع المذاهب والمناهج العباسية .

ولا نريد أن نطيل فى سرد مثل هذه الأمثلة ، ففى النمــاذج التى

---

(٨٤) الذخيرة : ١/٣٠٥ .

ذكرناها عند كل من الشعراء الأربعة ــ الذين تمثلنا بهم للدلالة على ما ذهبنا اليه من رأى فى زعمنا ــ الكفاية ، فالشعر الأندلسى كان صورة للنسيج الشعرى فى المشرق ، ولم يحاول الشعراء الأندلسيون أن يثوروا على الأوضاع والأنماط المشرقية فى الأدب ، بل انساقوا يقلدونهم ويحاكونهم ، « لأنهم كانوا يرون فيهم المثل الأعلى لشعرهم وأدبهم ، ويجدونهم منبع علومهم وآدابهم وفنونهم ، وقد ظلت معانى الشعر الأندلسى سطحية ليس فيها اكثار من الحكم وطرق المعانى الفلسفية ، وذلك لعدم اقبال الشعراء والأدباء على الفلسفة العقلية ولانصرافهم الى اللهو والحياة السهلة »(٨٥) ، الا أنهم قد أجادوا فى شعر الطبيعة ووصفها حيث ملكت معانى جمال الطبيعة نفوسهم واستحثت قرائح الشعراء فيهم وغذتها أفضل غذاء ، وكان يكفى أن تهب على ساكن هذه الجنة نفحة من نسيم عليل ، فتعمل عمل السحر فى شاعريته ، ولم يكن جمال الطبيعة فى الأندلس هو وحده الذى ساعد على ازدهار شعر الطبيعة فيها ، بل ان الحياة اللاهية نفسها والتى عاشها الشعراء ، كانت سبيلا لهذا الازدهار ، اذ كانت الطبيعة مسرح حياة الشاعر اللاهية،وفى أحضانها استلهم شعره ، وعكف يصور هذا اللهو وهذا الحب ، وهذا الخمر فى اطار الطبيعة مقدما لنا لوحات فيها التعبير والأصباغ والألوان.

ومع تفننهم فى شعر الطبيعة واكثارهم منه لم يصلوا به الى الحد الذى به يظهر كموضوع مستقل الا نادرا فى بعض المقطوعات والقصائد،وقد امتزج فى أكثر الأغراض التى طرقها الشعراء الأندلسيون، ولهذا الشعر خصائصه عندهم ، وان ظل موصولا ــ كما أسلفنا ــ بشعر الطبيعة عند المشارقة .

---

(٨٥) ٥٩ فى الأدب الأندلسى .جودت الركابى .

وقد بقى شاعر الطبيعة الأندلسى على رغم حسه العميق وحبه للطبيعة يصورها ويزخرفها ببصره ويجسمها ويجملها بخياله فأجاد الصناعة ولم ينفخ فيها دائما الروح ، ولم يستطع أن يتجرد من ماضى شعر الطبيعة ، وان كان قد طبعه أحيانا بطابعه وأخضعه لمقومات بيئته، ولئن استطاع بعض شعراء الأندلس فى عدد من القصائد أن يصف خلجات نفسه نحوها ، فقد قصروا بصورة عامة عن الاندماج فيها ، والتحدث من خلالها كما هو مفهوم الرومانسية عند شعراء الغرب.... وان كنا نتساءل : هل رأينا — حتى الآن — شيئا جديدا فى الأندلس ؟ ، فانه من السهل أن نبادر بالاجابة قائلين : انهم وان لم يستطيعوا أن يحدثوا فى عصر ملوك الطوائف وما تلاه من عصور الى سقوط غرناطة اتجاها جديدا فى الشعر العربى ، أو مذهبا فنيا ، فان ظروف الحياة والبيئة والطبيعة فى الأندلس والمغايرة عن حيوات المشارقة ، ثم الطبيعة المواتية واختلاط العناصر الجنسية المتباينة ، كان لهادورها فى استحداث أنماط جديدة من النظم استدعاها فن الغناء ، وهى الموشحات والأزجال، والحقيقة والواقع يفرضان أن لا يعد الزجل من المبتكرات الفنية التى لها صلة بالابداع الأدبى للغته العامية وانما هو أقرب الى الفنون الشعبية منها الى فنون الأدب الأصيلة ، أما نن الموشح فانه يجب أن ينظر اليه — أيضا — فى حذر لأن هذا الفن الجديد كان تمهيدا للخروج عن متعارف الأسلاف فى فن الشعر ، كما يعد حلقه فى سلسلة التمردات التى حدثت على نظام القصيدة العربية منذ بدايات العصر العباسى ، ولم يحدث هذا الفن فجاءة على شكله التام ، وهو أيضا لم ينظمه الشعراء دون أن يلقى مقاومة من النقاد ، فقد كان يرى فيه المحافظون خروجا على القديم ، وبدعة شعرية لم يألفوها ، فعابوا لذلك أصحابه — على السواء — فى الغرب وفى الشرق ، واعتبروه ضعفا وظاهرة من ظواهر الانحطاط الأدبى .

ومما لاشك فيه أن ظهوره فى عصـور الانحطاط الى جانب أثـره الضار فى اللغة يؤيد هذا القول(٨٦) ، واذا وازنا هذا الخروج على عمود الشعر العربى عند الأندلسيين بما حدث عند طائفة الشـعوبيين الذين استخفوا بنظام القصيدة العربية فى الشكل والمضمون ، عنـدما ضاقت الحياة العباسية فى بغداد بنظام القصيدة وحاولت التحـرر من قيودها لتجارى البيئة الحضرية الجـديدة ، قلنا ان جـذور هذا اللون المستحدث وأصوله تمتد الى تلك المحاولات الرافضـة لعمود الشـعر ونمطه عند الشعراء العباسيين ، وهم بهـذا الاعتبار يعدون مقلـدين للمشارقة فيه ، ان لم يكن بمضمونه فعلى الأقل بالمشاكلة فى المحاولة .

د. زهران محمد جبر

---

(٨٦) ٢٩١ : المرجع السابق .